

من خان آيات الأخرس؟؟

بقلم : أسامة العيسة

بدلاً من المقدمة :

منذ أشهر ، عكفت على إعداد كتاب عن الاستشهاديين ، كنت أراه مختلفاً عن كل ما كتبت به و هو أقرب إلى أن يكون بيلوغرافيا عن الاستشهاديين أو "موسوعة" عنهم ، بالإضافة إلى بحث تاريخي - تحليلي عن الموضوع .

و ما جعلني أبدأ بجمع المادة لكتاب هو في شكله بعيداً عن اهتماماتي و أسلوب ، هو تأثير فعل الاستشهاد بالشكل الذي يقوم به الاستشهاديون ، و الذي يمكن أن يهزّ أي إنسان طبيعي في العالم ، و ردة الفعل التي كنت أسمعها من بعض ممن أقابلهم في الأروقة الأكاديمية للجامعات أو في زوايا بعض الأحزاب و الصحف ، من موقف استنكاري غير مفهوم ، بنظري للفعل الاستشهادي ، و كنت أعتبر ذلك الموقف نوعاً من القتل لمن قدّموا أغلى ما يملكون بل كل ما يملكون من أجل قضية و هدف ، فضلاً عن الموقف السياسي الرسمي الفلسطيني و العربي و الدولي غير العادل من الاستشهاديين .

و برأيي فإن هؤلاء الذي بدأوا فعل الاستشهاد ، التقطوا البوصلة مبكراً ، لشكل نضالي جديد و مؤثر و متقدّم في الساحة الفلسطينية ، فتحوّل هذا الفعل ، لعوامل كثيرة ، خاصة في انتفاضة الأقصى ، إلى ظاهرة راسخة في المجتمع الفلسطيني ، تفشل مراكز الأبحاث الغربية و الصهيونية ، على الأغلب في تفسيرها ، و في تحديد ما تسميه هذه المراكز (الاستشهادي النموذجي) .

فمع تکرّس فعل الاستشهاد كظاهرة ، فإنه يجب أن يستتبع بالضرورة دراسات من نوع آخر ، لفهمها دون إطلاق أحكام قيمة عدائية مسبقة عليها ، فالاستشهادي النموذجي بالنسبة لهذه المراكز التي درسته يتحدّد بسنّه و تعليمه و بانتمائه الفصائلي و درجة تعليمه و حالته الاجتماعية إن كان أعزباً أو متزوجاً و غير ذلك .

و لكن على أرض الواقع فالأمر مختلف إلى حد كبير ، و دراسة كل حالة استشهادي تثبت أن الفعل تحوّل إلى ظاهرة يستحق التوقف عندها فعلاً ليس فقط من المعنيين في الصراع أو القريبين منه بل من كل أحرار العالم و قواه الحيّة .

و من المؤسف أن يقدّم "متقفون فلسطينيون مستقلون" كما أسموا أنفسهم على إصدار بيان استنكاري في الصحف لظاهرة الاستشهاديين ، إن دلّ على شيء فيدلّ على بعد هؤلاء عن ما يدور في المجتمع الفلسطيني و على أنهم في الواقع ليسوا (متقفين أو فلسطينيين أو مستقلين) ، ففي فترات التحرّر يكون المتقف الحقيقي ابناً لمجتمعه و متقفاً عضواً يحمل روحه على كفه ليفدّمها فداءً للقضايا التي يؤمن بها ، و علاقة هؤلاء بفلسطين مشكوك بصدقها و إخلاصها ، و هم آخر من يمكن وصفهم بالمستقلين ، لأنهم يتقاضون ميزات من أجهزة غربية تحت ستار منظمات غير حكومية يديرونها ، و الإعلان الذي نشره مولّد من الاتحاد الأوروبي .

و يحلو لآخرين الإشارة إلى عامل الإحباط كمحرك للفعل الاستشهادي ، و النظر إلى هذا العامل في حالة وجوده ، كعامل مساعد سلبي ، و هو ما تنفيه الوقائع على الأرض ، كما عشتها و شاهدتها و عاينتها ، ففي بحث أجريته عن حياة عدد من الاستشهاديين ، تبين لي أن هؤلاء كانوا ليسوا فقط غير محبطين بل أيضاً يحبون الحياة و بعضهن مقبل عليها كما لو أنه سيعيش الدهر كله ، بعكس ما يروّجه البعض في الداخل الفلسطيني و العربي و الإسلامي و الخارج الغربي .

و مثلاً ، خلال لقائي مع والدة الاستشهادية آيات الأخرس قالت : "ابنتي كانت متفوقة في دراستها و مخطوبة و تعيش في وضع مالي جيد و لا تعاني من فقر أو إحباط ، و قبل ساعات من توجّهها إلى عمليتها الاستشهادية قدّمت امتحاناً في مدرستها و حصلت فيه على علامة كاملة ، فهي لم تكن محبطة أو كارهة للحياة ، بل كانت متفقة مع خطيبها على أسماء الأولاد اللذين سيأتون في السنوات القادمة" ..

و هناك من الاستشهاديين من هو سنه أكبر مما يحدّد عادة في صفات (الاستشهادي النموذجي) مثل الاستشهادي داود أبو صوي - 45 عاماً - من قرية أرطاس ، و كذلك يوسف أبو صوي - 38 عاماً - و ياسر عودة - 36 عاماً - و الثلاثة كانوا متزوجين و يعيشون حياة "مستقرة" نسبياً ، و آخرون كانوا ناجحين في أعمالهم بشكل كبير مثل الاستشهادي إيهاب حبيب الذي كان تاجراً ناجحاً ، و غيرهم كانوا مقبلين على بناء حياة زوجية مثل الاستشهادي محمد توفيق الشمالي الذي كان خاطباً ، و جلب لخطيبته هدية العيد قبل أيام من عمليته الاستشهادية التي نفذها في يوم عيد الفطر .

و هناك تفاصيل اللحظات الأخيرة المدهشة لكلّ استشهادي .

و هل يمكن لأشخاص يهتمون بكلّ هذه التفاصيل ، أن يكونوا ذاهبين للموت انتحاراً ، أم للحياة استشهاداً؟؟ و من المثير للاهتمام أن يكون بعض الطلبة الذين نفذوا عمليات استشهادية كانوا من المتفوقين مثل حامد أبو حجلة و آيات الأخرس و عيسى بدير و هو أصغر استشهادي من الضفة الغربية .

و خرج الاستشهاديون من أوساط اجتماعية مختلفة و من بيئات مختلفة ، و قلة منهم من خرجوا من أوساط فقيرة جداً أو غنية جداً ، و معظمهم من الطبقة المتوسطة .

و لم يقتصر خروج هؤلاء على فصائل المقاومة الإسلامية مثل حركتي حماس و الجهاد ، و لكن أيضاً على فصائل أخرى ، و إن كان يجب ملاحظة أن معظم الاستشهاديين هم من المتدينين بهذه النسبة أو تلك ، و بعضهم بدأ بالمواظبة على الشعائر الدينية قبل العملية بوقت قصير ، و أن انتماء بعضهم لهذا الفصيل أو ذاك لا يعني بالضرورة التزاماً أيديولوجياً - سياسياً مسبقاً بفكر هذا الفصيل الذي عمل هذا الاستشهادي أو ذاك من خلاله ، و لكن الأمر يتعلق بالفرصة السانحة الأسرع للفعل الاستشهادي و أحياناً العلاقات الخاصة ، كالصداقة و المعرفة ، التي تلعب دوراً في هذه المسألة .

و في هذا الكتاب حاولت أن أقدم تحية عاجلة للاستشهادية آيات الأخرس ، التي أثرت في قلوب الملايين ، و كان استشهادها حافزاً لآخرين للسير على نفس النهج .

و لن يكون ذلك بالنسبة لي نهاية المطاف ، مع هذا الموضوع

أسامة العيسة

أربعون يوماً .. أكثر من أربعين يوماً .. !

بعد أكثر من أربعين يوماً على استشهاد آيات ، كنت يوم الجمعة (2002/5/24) أخطو نحو منزل أبو سمير ، بعد انسحاب الاحتلال الصهيوني الجزئي من المنطقة . و كنت أود الجلوس معه منفرداً بعد غياب ظروف المفاجأة الضاغطة عليه ، هذا إذا كان يمكن أن تغيب ، التي أسميها من باب التخفيف "مفاجأة" .. !

و في الطريق إلى منزله في أحد زوارب مخيم الدهيشة قرب مدينة بيت لحم ، كان السؤال الداخلي ما يزال يلحّ عليّ طوال الأيام الماضية : أيام الحصار و الدم و الألم : هل كان يجب أن تستشهد ، آيات ، الطالبة المجتهدة ابنة السابعة عشر دفاعاً عن كرامة هذه الأمة؟؟

و ما هي هذه الأمة التي تحتاج لآيات كي تدافع عن كرامتها ، هل أمة بهذا الشكل بقي لها أدنى كرامة ، لتقوم آيات ، أو غيرها بالدفاع عنها؟؟

و أمة كهذه هل تستحق أن تدافع عن (شرفها) آيات ؟ و أي (شرف) هذا الذي ستدافع عنه .. !

كان ذلك في يوم الجمعة 2002/3/29م ، عندما غابت آيات ، و إلى الأبد ، عن شوارع المخيم .. !

كان العرب الرسميون قد عقدوا قمة تاريخية لمناقشة قضية فلسطين ، و التصعيد الصهيوني غير المسبوق خلال انتفاضة الأقصى ، التي كانت تخطو في شهرها الثامن عشر ، و كان مقرراً للقمة التاريخية أن تستمع لرئيس السلطة الفلسطينية المحاصر في مقره في رام الله ، يلقي كلمة افتتاحية عبر الأقمار الصناعية ، و لكن

تدخلات عربية رسمية منعت عرفات الرسمي من إلقاء كلمته ، و بحث الرسمىون مبادرة سلام عربية جديدة ، و أقرّوها ، في وسط أجواء القمع الصهيوني و البلاهة العربية .

و في المؤتمر الصحافي الذي عقد في ختام القمة التاريخية سأل صحافي أجنبي :

– أنا مندهش .. شارون أعلن أمس عن خطته التوسعية و تمسكه بسياسته و رفضه لمبادرتكم ، فما معنى هذه المبادرة أصلاً ... ؟!

و سأل آخرون :

– ماذا لو رفضت (إسرائيل) مبادرتكم ؟ ماذا ستفعلون ؟ هل ستفرضونها بالقوة ، ما هو بديلكم .. ؟!

و خرج صحافيون الأنظمة يبشرون بعهد جديد ، .. أخذت فيه الأنظمة المبادرة و لم تنزل لمستوى مطالب شعوبها ، و أنها لم تعد تحتكم للشارع الغوغائي .. !

و ما كاد المؤتمر التاريخي ينهي أعماله ، و ينسى صحافيون الأنظمة ما قالوه ، حتى كان رد مجرم الحرب شارون عنيفاً و غير مسبوق ، ببء حملة أسماها (السور الواقى) في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام 1967م ، و بدأ حرباً لم تشهد لها تلك الأراضي في تاريخها .

و تقدّمت دبابات الاحتلال إلى مقرّ عرفات الذي كان محاصراً منذ أشهر و بدأت باقتحامه وسط أجواء ترقب و متابعة شعبية عربية ، و صمت رسمي عربي ..

و في هذه الأجواء حضرت آيات ..

الفصائيات العربية ، كل وسائل الإعلام ، مراكز صنع القرار في العالم ، الرئيس الأمريكي "بوش" .. اتجهت بأنظارها إلى هناك ، إلى حي "كريات أوفيل" الاستيطاني بالقدس الغربية ، و العملية الاستشهادية .. إلى آيات ..

بعد أقلّ من ساعة على الإرباك الذي أصاب "شارون" ، مما حدث في "كريات أوفيل" ، بدأت أصوات الرصاص تلعلع في مخيم الدهيشة ، و تعلو الزغاريد .. !

كنت ، مثل غيري أستعد ، للعدوان المقبل على المحافظة ، نزلت إلى الشارع ، .. شارع القدس – الخليل ، الطريق التاريخي الذي مرّ به فاتحون و غزاة و أفاقون و مغامرون طوال قرون ، كان الفتيان و الفتيات انتظموا في تظاهرة كبيرة فرحاً بمنفذة العملية :

عندما اقتربت أكثر منهم سألت :

– هل تأكد أنها من المخيم ؟

– من هي .. ؟

– ؟

– آيات !

لم يكن منظر المتظاهرين غريباً في أجواء انتفاضة الأقصى ، لكنه اكتسب معنى آخر ، كان جيل جديد من الفلسطينيين ، يخرج إلى هذا الشارع تسبقه الزغاريد و يلحقه أزيز رصاص الفخر الذي ينطلق من بنادق يحملها شبان صغار من أبناء المخيم ، عاشوا يحملون قضيتهم على أكتافهم.

شرد ذهني إلى أعوام كثيرة سابقة .. إلى وقائع حدثت في هذا الشارع قبل خمسة و ثلاثين عاماً .. تاريخ بعيد لا أعيه تماماً و لكن عشت سنوات عمري مع نتائجه ... و لا يعيه هؤلاء الفتية و الفتيان و لكنهم كانوا أبناءه : أبناء ما أسموها : نكسة .. !

و سمعوا من آبائهم عندما وقفوا في هذا الشارع : شارع القدس – الخليل ، في ذاك الحزيران الحزين ، حزيران السابع و الستين ، أشهر حزيران في تاريخ العرب ، ينتظرون الجيش العراقي المخلص ، و الجيوش العربية الأخرى التي ستسحق "تل أبيب" .. !

و سمعت أيضاً ، مثلهم ، من والدي .. !

عاش والدي و مات فقيراً ، دفن خمسة من أبنائه قضوا في صراع البقاء مع اللجوء و الجهل و الفقر و المرض ، و هو الذي لم يبقَ لديه شيء ليخسره مثل كل فقراء الدنيا ، ظلَّ يتمسك بكرامة و عزة و بأوراق صفراء متأكلة يسميها (كواشين) لأرض عاش يشرق إليها بالقلب و انثيلات الحنين و المنتأى .. و كانت فلسفته التي حرص على تعليمها لي ، أن أعيش الحياة طويلاً و عرضاً ، و لا أخاف شيئاً .. و أقول للأعور (أنت أعور في عينه) ، باعتبار ذلك قمة الشجاعة ، و مات والدي قبل أن يعرف أن الشجاعة الحقيقية هي أن تقول (للحو .. حلو في عينه) .. !

و عشت غير مصدق أن والدي يمكن أن يكون شجاعاً ، فهو رجل متعدد الانهزامات ، مهزوم أمام العمر الذي يجري دون أن تلوح في الأفق بارقة عودة للأرض و الأملاك و العز الغابر ، مهزوم أمام القرش الذي لم يعد يجري بين يديه كما كان (أيام البلاد) التي ضاعت ، مهزوم أمام زوجته العنيدة ، و أول موقف انهزامي سجلته عيناى عندما كانتا صغيرتين ، في حزيران السابع و الستين .. في ذلك الصيف كان عمر الولد وقتذاك أقلّ من أصابع اليد الواحدة ، و مع ذلك ما زال يذكر أمه التي جمعت الأولاد و استعدت للرحيل مع الريح الشرقية إلى ضفة الأردن الأخرى .. يذكر الخوف و اللهفة و الجرح النازف ..

و يذكر أيضاً ، الوالد المشغول بالبحث عن قطعة قماش بيضاء ، قميص أبيض ، أي خرقة بيضاء ، ليرفعها في سمائه السوداء بعد أن تبين بأن الجيش الذي دخل المخيم لم يكن هو الجيش الذي انتظروه . و يعود الولد بذاكرته ، التي تداخلت مع محكي الكبار ، إلى اليوم .. من أوله ، حين تجمع ناس المخيم على رصيفي الشارع بين قدس الأقداس و مدينة إبراهيم الخليل ، هتافات .. و أناشيد و رقص .. عرس حقيقي ، يتحلق الجميع في دوائر متداخلة ، الرجال يطلقون المواويل بأصواتهم الغليظة ، في كل حلقة تشمر إحدى النساء ثوبها ، غ نه يوم مباح لنشوى المكبوت ، تثبت طرفه في خصرها ، و تنزل تلهب الأرض بقدميها ، تتعالى الهتافات ، تجحظ العيون ، و القلوب الناشفة تتخلى ، في لحظة ، عن يباسها إلى الأبد ، فالأمل الذي يرقصون له .. خرجوا من أجله ، تحقق بجسر الهوة بين الأمل و تحقيقه :

(الجيش العراقي .. وصل .. وصل .. يا ناس .. !)

على جانبي الشارع يعيش الناس فرحهم الأول ، و في الشارع تتقدم ثلة من الجيش الذي ينتظرون .. هم .. و من غيرهم ؟ أبناء الرافدين الصناديد .. يرش الملح في فرح يتضاءل أمامه أي فرح .. أفراحهم كانت سرايا .. و هذا هو الماء .. الواحة في صحراء زمانهم .. تخفق الرجال من عبء الملابس الثقيلة ، هذا وقت الدبكة و السحجة و الدحية ، وقت النساء بامتياز ، لن تحبس زغرودة في صدر مكلوم .

و رغم الوجوه الحمر .. و العيون الملونة و الأنفاس الغريبة ، التي تدب على الشارع ، إلا أن قلباً لم يتوجس ، إنهم العرب .. أولاد العراق ، الذين انتظرناهم طويلاً ، حتى خرجت من بين صفوف لابس الكاكي ، المجنّدة ذات الشعر الأشقر و القميص المشقوق بدون أكمام ، و الشورت الذي يكشف عن المحرّم ، و رسمت لهم ببديها خازوقاً نفذ ، مرة واحدة ، إلى الأعماق ، و هي ترطن من قاموس البذاءة بكلمات كشفت عن هوية المحتلين الجدد .. !

انكفاً الجميع ، البعض سابق دقات قلبه المتسارعة ليلحق بالراجلين ، و الوالد سارع مثل كثيرين لرفع الراية البيضاء ، فهو لن يكرّر تجربة الرحيل مرتين .

الأم تلملم صغارها ، كدجاجة تحاول وضع فراخها تحت جناحيها المكسورين ، و ترفض بشدة أن تعطي غطاء رأسها الأبيض للوالد ليرفعها علامة ، هي تريد الرحيل ، و هو يحاول أن يتجرّع غصة الهزيمة و يظلّ .

و بعد نوبة مناكفة ، و لأن الوالد يعرف امرأته جيداً حين تعاند في موضوع ما ، لم يبقَ أمامه سوى أن يخلع سرواله (أبو الدكة و الترباس) ، رغم أنه لم يكن ناصع البياض ، و يرفعه على خشبة طويلة تثبتها على غرفة وكالة الغوث ، دون أن يعرف الوالد حينها أن سرواله سيكون سمة و شارة لزمان عربي ما تزال تعيشه أجيال متعاقبة .

* * *

و كأن الفتية و الفتيات هؤلاء يرفضون أن يعيشوا واقع الهزيمة ، فخرجوا في نفس الشارع بعد خمسة و ثلاثين عاما لا ينتظرون أحداً ، و لا يمنون أنفسهم بأي "غودو" لا يأتي ، و إنما كانوا في انتظار عودة روح رفيقته التي أرسلوها إلى هناك ، و جاءهم خبر النجاح ، فخرجوا يرحبون بروحها .. !
اقتربت منهم أكثر ، لم يكن لديّ وقت كثير ، فالدبابات على المشارف ، و ستدخل في أية لحظة .. فسألت :

- من هي .. من .. هي .. ؟

* آيات ..

- ... ؟

* آيا .. آيات... ابنة أبو سمير .. !

(2)

كان أبو سمير ترك لحيته تنبت بدون تهذيب و السجاجة لا تفارق فمه ، و أصرّ على الجلوس في المنزل ، رافضاً عرضاً أن يجلس معه في حوش الحارة الضيقة التي كان يجلس فيها أمام أحد الدكاكين الصغيرة .
كانت صور آيات المختلفة تملأ جدران مدخل المنزل الصغير الذي حولته العائلة لاستقبال الضيوف ، و من بينها آخر صورة لها مع شقيقتها سلام ، قبل الغياب الكبير بيوم ، و التي كانت اصطحبته في زيارة لمدينة بيت لحم و تم التقاط هذه الصورة الأخيرة لها .
و لم تلمح آيات بأيّ شيء عما تنوي عمله لشقيقتها سماح و إنما قالت لها جملة بدت عابرة و غير مفهومة :

- ربما تكون هذه آخر صورة تجمعنا معاً .. !

نظرت ملياً في عيني آيات في الصورة الأخيرة ، علني أستكشف نوايا و آمال اللحظات الأخيرة ، و لكنني لم أنجح ، كانت عيناها في مثل كل الصور الأخرى ، تشعان أماناً و طمأنينة و تفاؤلاً و قوة إرادة ، كنت أعرفها ، قوة الإرادة هذه ، بالإضافة إلى الذكاء الدافق ، من معرفة سابقة لحالة آيات ، و في ظروف شبيهة من حيث العمر و ظروف المقاومة مع آيات .

كنا ، نقاوم ، جيلاً وراء جيل ، و إذا كان التاريخ ، ربما ، سيتوقف يوماً ما أمام ما فعله سياسيو فلسطين بنضال تلك الأجيال ، فإنه يرتكب خيانة كبرى أنه لم يكتب محنياً رأسه :

(لقد فعل أولاد الفلسطينيين ، جيلاً وراء جيل ، ما لا يمكن أن تفعله أية أجيال أخرى في ظروف مشابهة .. !
... أو فعلت ، هذه الأجيال ، ما كان يمكن أن تفعله أية أجيال أخرى ، في أمكنة أخرى من أجل الحرية .. و الكرامة .. و أشياء أخرى .. !)

و لكن؟؟؟ ، و لكن هذه لها قصة أخرى .. !

و اختلفت السنون ، و بقيت القضية .. !

صباح يوم التنفيذ ، و مثل أية طالبة مجتهدة لم تتخلف آيات عن دوامها المدرسي في مدرسة بنات أرتاس الثانوية ، و ذهبت آيات الطالبة في الصف الثاني الثانوي إلى المدرسة رغم أن اليوم هو الجمعة و عطلة رسمية التزاماً منها ببرنامج تعويضي أعدته مديرية التربية في محافظة بيت لحم لتعويض الطلبة عن ما فاتهم من دوام خلال الغزو الاحتلال و أكدت زميلات لآيات بأنها التزمت بالدوام حتى آخر لحظة ، و قدّمت امتحاناً ، كانت علامتها فيه كاملة ، و عندما غادرت زميلاتها إلى بيوتهن تخلفت عن العودة معهن قائلة إن لديها عمل تريد أن تنجزه ، و لم تكن هناك أية شواهد على نوعية هذا العمل سوى ما قامت به من حضن

إحدى زميلاتها و كأنها تودّعها الوداع الأخير . و تتذكّر زميلاتها شاهداً آخر أكثر وضوحاً ، عندما قامت آيات بتعليق صورة الاستشهادي محمد ضراغمة على أحد جدران الصف و طلبت من زميلاتها أن يعلّقن صورتها إذا حدث و استشهدت قبالة صورة ضراغمة تماماً . و لاحظت بعض زميلاتها بأنها انشغلت بالكتابة على ورقة و أخفت ذلك عن زميلاتها اللواتي طلبن بدافع الفضول معرفة ما تخطه و ضحكت الزميلات على خيال آيات المفرط ، و لكن بعد أن استشهدت علّقن صورتها قبالة صورة ضراغمة و هن يبيكين .

و لكنها قالت لهن إنهن سيقرأن ذلك فيما بعد .

و لم تكن آيات فقط تخطّ في تلك الساعات على ورقة ، ربما كانت تلك التي قرأت منها خلال وصيتها المصوّرة و لكن أيضاً كانت تخط على مقعدها .

كتبت آيات .. آيات قرآنية و أبيات من قصائد و كلمات أغاني .. !

(يا .. رب .. ،

إما حياة تسر الصديق و إما ممات يغيظ العدا)

....

...

(علمتني ضربة الجلاذ .. أن أنهض ، أنهض .. و أقاوم ...

فلسطين عربية ..)

....

....

(.. يا أمي الحنونة .. لا تبكي علي ..

شعارنا : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله) .

.....

....

(وين الملايين .. الشعب العربي وين ..

وين الغضب العربي .. وين الدم العربي ... وين

الله .. معنا الله أقوى من بني صهيون ..)

....

....

(الشهيد البطل جاد عطا الله)

...

...

(الويل للعملاء و الخونة .. ثورة حتى النصر) .

....

....

(بسم الله الرحمن الرحيم : و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون)

....

(بسم الله الرحمن الرحيم : قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يكن له كفواً أحد) .

.....

....

(حلمنا طول عمرنا .. صدر يضمنا كلنا

.. جاوز ظلام الليل إنما يوصل لأبعد مدى) .

....

....

(يا أقصى ما أنت وحيد ، سيّجناك بقلوبنا ، عنك ما نحيد إنت سراج قلوبنا) .

.....

.....

(إن عشت فعش حراً ، و إن مت كالأشجار وقوفاً ... وقوفاً كالأشجار) .

....

....

(فلسطين الحبيبة

أنا الشهيد يا أمي

إن النصر صبر ساعة ...) .

....

.....

(سحقاً لأطفال العالم إن لم يعيش أطفال فلسطين) .

...

...

(يا ثوار الأرض ثوروا على الطغيان

..ثوروا على الحرمان) .

.....

.....

.....

(مجموعة الشهيد محمود المغربي و جاد عطا الله

حركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح -

كتائب شهداء الأقصى ...) .

...

...

و بعد كلّ ما كتبته مما دار في دماغها ، وقعت : أم عدي ... آيات الأخرس .

آيات الأخرس : لأنه اسمها و أم عدي ، لاتفاقها مع خطيبها على تسمية الابن البكر القادم بعدي ، و بتوقيعها بتلك الكنية كانت ترسل إشارة حب و عهد لخطيبها الحبيب .

و بعد ساعات و بينما كان المتظاهرون فرحين بآيات رغم المطر الذي بدأ ينزل بغزارة ، ظهرت آيات ، في شريط مصور بثقة تغطي رأسها الكوفية الفلسطينية و خاطبت الحكام العرب مباشرة (كفاكم تخاذلاً) .

و قالت آيات ، التي كانت تقرأ من ورقة تحملها ، أنها توجه رسالة لهؤلاء الحكام المتخاذلين و جيوشهم التي تتفرّج على الجرائم التي ترتكب بحق الشعب الفلسطيني .

و كانت الإشارة واضحة إلى ما جرى في مؤتمر القمة العربية في بيروت و الذي اعتبره الرأي العام الفلسطيني غير ناجح و وصفته قطاعات من الرأي العام الفلسطيني بأنه مؤتمر التخاذل بسبب عدم اتخاذ موقف عملي لنصرة الشعب الفلسطيني .

و أكدت في وصيتها و التي لم تستغرق سوى ثلاث دقائق بأنها قرّرت الاستشهاد دفاعاً عن الأقصى و عن فلسطين و عن الكرامة العربية .

و ختمت وصيتها بالقول (وأقصاه و الله أكبر على الظالمين) .

و استمرت لساعات إضافية احتفالات الجماهير في مخيم الدهيشة بالشهيدة و أمّت الجماهير منزل عائلتها و وزّعت الحلوى و أطلقت الزغاريد .

و تأكد ، بعد بثّ الشريط المصور ، أن آيات ابنة مخيم اللجوء هي التي نقّدت العملية ، فعلاً ، باسم (كتائب الشهيدين محمود المغربي و جاد عطا الله) .

(3)

في فجر يوم 2000/12/10 ، و انتفاضة الأقصى تخطو خطواتها بثقة أكبر بدماء أجيال جديدة من الفلسطينيين ، كان محمود المغربي مسؤول أحد الخلايا المسلحة في الانتفاضة ينقذ عملية ضد قوات الاحتلال في منطقة بيت جالا التي استقطبت الأنظار بسبب قربها من مستوطنة "جبلو" التي عرف المقاومون أنها إحدى نقاط الضعف الصهيونية بسبب اعتبارها جزءاً من حدود بلدية القدس الصهيونية ، فأصبحت هدفاً دائماً لهم .

كان المحتلون ينتظرون محمود في كمين مدبر مسبقاً و بعد إصابة محمود في ساقه اعتقله المحتلون و سلّموا جثته بعد نحو عشر ساعات و كان واضحاً أن ثلاثة عيارات نارية أطلقت على رأس محمود من نقطة صفر كانت كافية لإعدامه ، و كانت آثار التعذيب واضحة على وجه الشهيد و الدماء ما تزال تنزّ من رأسه .

و كان ذلك أول إعدام ، في انتفاضة الأقصى ، تنقّده قوات الاحتلال لمناضل بعد اعتقاله حيث أعدمت بهذه الطريقة ، حسب إحصائية أولية نحو 80 فلسطينياً .

و أصبح محمود : الفتى الأسمر نقي القلب ، في استشهاده ، مثلاً كان في حياته ، نموذجاً و قدوة ، و أكمل آخرون طريقه تحت اسم (كتائب الشهيد محمود المغربي) و نقّذوا عدة عمليات مقاومة . كان أبرزها تلك التي نقّذها الفتى محمد أحمد ضراغمة ، بتاريخ 2002/3/2م ، في القدس الغربية .

و أسفرت عن مقتل عشرة و إصابة العشرات بجراح مختلفة ، و حملت تلك العملية الاستشهادية ، في وقتها ، أكثر من مغزى .

و أعطت تلك العملية التي فاجأت قوات الاحتلال التي فرضت حصاراً مشدداً لا مثيل له على المناطق المحيطة بالقدس مثل بيت لحم التي جاء الشهيد ، من أحد مخيماتها و هو مخيم الدهيشة ، مصداقية كبيرة للتهديدات التي كانت أطلقتها كتائب شهداء الأقصى بتنفيذ عمليات خلال ساعات إذا استمر العدوان الاحتلالي على مخيم بلاطة و جنين ، و الذي عرف ، في حينه بحرب المخيمات ، و هو ما حدث و بشكل مدوّي على يد ابن مخيم الدهيشة محمد ضراغمة و بعملية كانت ناجحة بكلّ المقاييس ، بعد سلسلة من العمليات التي شهدت إخفاقاً نسبياً نتج أساساً على الأغلب لحالة التأهب العالية التي أعلنتها سلطات الاحتلال .

و في الوقت ذاته جاءت عملية ضراغمة للتأكيد على الترابط بين أبناء المخيمات الفلسطينية بعد أن فهمت جماهير هذه المخيمات بأن العدوان الاحتلالي على مخيمي بلاطة و جنين يحمل أبعاداً سياسية تتعلق بقضية اللاجئين ، و هو الأمر الذي يعتبره هؤلاء خطأ أحمر لا يمكن تجاوزه .

و كان مخيم الدهيشة شهد تظاهرة كبرى قبل عملية ضراغمة ببوم تضامناً مع مخيمي بلاطة و جنين انطلقت من أمام صرح الشهيد في المخيم إلى مدينة بيت لحم و هدّد فيها المقاومون بالانتقام لشهداء بلاطة و جنين .

و من نفس المكان الذي انطلقت منه التظاهرة التضامنية انطلقت ليلة تنفيذ العملية مسيرة حاشدة ضمت رفاق الشهيد محمد ضراغمة و الآلاف من أبناء المخيم إلى منزل والد الشهيد ، و سار المتظاهرون يهتفون بحياة الشهيد و يطلقون زغاريد الفرح و الرصاص في الأجواء تعبيراً عن فخرهم بالشهيد ابن مخيمهم .

و لا يمكن إغفال مغزى آخر للعملية و هي أنها تأتي انتقاماً للشهيد محمود المغربي القائد في كتائب شهداء الأقصى و الذي تبنت العملية الاستشهادية الوحدات التي تحمل اسمه .

و شعر سكان مخيم الدهيشة بالفخر الكبير كما عبر عن ذلك أكثر من واحد منهم بالشهيد ابن مخيمهم و اعتبروا تضحيته ، أمراً طبيعياً للمخيم الذي كانت له صولات و جولات مع الاحتلال منذ أكثر منة ثلاثين عاماً .

و كان لنجاح ضراغمة بتنفيذ العملية بتخفيه بلباس متدينين يهود ، أثراً مريعاً على المحتلين ، خصوصاً و أن إحدى الصهيونيات شاهدت ضراغمة بلباسه المتكرر و شكت فيه عندما شاهدته يخرج سيجارة من جيبه و يشعلها و هو يقف أمام كنيس يهودي ليفجر نفسه .

و ربما نسي محمد أنه يحظر على اليهود إشعال النيران في يومهم المقدس ، و ربما كان ذلك حاضراً في ذهنه ، و لكنه لم يقلوم رغبته الأخيرة في الحياة التي سيغادرها سريعاً و بعد لحظات و هو ما حدث عندما ضغط على الزر المتفجر ، بعد أن نفث أنفاس سيجارته ، و أوقع 12 قتيلاً في أوساط الصهاينة ، قبل وصول شرطة الاحتلال التي أبلغتهم تلك التي شاهدت السجارة المشتعلة .

و كانت نذر التوتر تلوح في الأفق ، و فجر اليوم التالي لعملية ضراغمة ، أغارت قوات الاحتلال بمروحياتها على مقر أجهزة السلطة الفلسطينية و دمرت ورشة حدادة خاصة تملكها إحدى عائلات بيت لحم .

و قتل في الغارة ، التي أطلق خلالها نحو عشرة صواريخ ، على تلك المقار و ورشة الحدادة ، حصاناً ترك وحيداً داخل تلك الورشة .

و لم تقع إصابات في الغارة على مقر أجهزة الأمن في المبنى المعروف بالمقاطعة لإخلاء هذا المبنى سابقاً ، و إنما أحدثت تدميراً فيه ، و هو جزء من سلسلة البنايات التي بناها الاحتلال البريطاني و تسمى بنايات (تارغيت) على اسم المهندس البريطاني الذي وضع مخططات بناء مقرات لقوات الاحتلال البريطاني بعيداً عن هجمات المقاومين على أطراف المدن الفلسطينية الرئيسية مثل نابلس و رام الله و الخليل و غيرها و تسمى كلّ بناية منها بالعمارة .

و في الليلة التالية صعدت قوات الاحتلال من عدوانها و استخدمت طائرات الـ أف 16 في غارة جديدة على مبنى المقار الأمنية "المقاطعة" ، و أحدث القصف الذي تم على مراحل تدميراً كبيراً ، و أوقع إصابات في صفوف المواطنين .

و أدى القصف أيضاً إلى تهشيم زجاج عشرات المنازل في مختلف أحياء المحافظة بسبب تحليق الطائرات على ارتفاع منخفض و قوة الصواريخ التي أطلقت . و في النهار التالي ضرب المقاومون ، و نجحوا في قتل مستوطنة و إصابة زوجها خلال عملية جريئة قرب الخضر .

و قتلت المستوطنة و أصيب زوجها بعد أن أطلق المقاومون النار على سيارة للمستوطنين كانت تسير على الشارع الاستيطاني المعروف بشارع رقم 60 و هو شارع أقيم على حساب أراضي المواطنين في عدة مدن و قرى فلسطينية للربط بين المستوطنات الموجودة في محيط القدس المحتلة و تلك في جنوبها .

و استمرت الغارات الليلية بطائرات الـ أف 16 و التي لم يكن أثرها فقط على مبنى المقاطعة و لكن أيضاً على الأبنية السكنية المقابلة لها ، مثلما حدث مع المواطن يوسف إلياس الذي عندما خرج مساءً و زوجته و أطفاله الثلاثة من بيتهم ، لم يكن يتوقع أن يعود إليه ليجد مدمراً بالكامل .

كانن طائرات الـ أف 16 تحلق في سماء المحافظة و هدير محركاتها يصم الآذان و أضواءها تلمع في السماء ، و أصبح المواطنون على يقين بأن هدفاً أو أكثر ستقوم طائرات التدمير هذه بقصفه ، و مثل كثير من المواطنين شعر يوسف إلياس بالخطر المقبل خصوصاً و أن بيته يقع مقابل مبنى المقاطعة و هو أحد الأهداف الأكثر احتمالاً للقصف ، فأخذ أطفاله الصغار و زوجته بسرعة إلى بيت والده ، و كان مثل جميع سكان المحافظة يستطيع سماع أصوات الانفجار الذي أحدثه الصاروخ المدمر الأول الذي سقط على مبنى المخابرات العامة في المحافظة ، و تواصل القصف خلال نحو نصف ساعة سقط خلالها أربعة صواريخ

كانت كافية ليس فقط لتدمير مبنى المخابرات و إحداث تدمير في مبنى الأمن الفلسطيني و الأمن الوقائي بل أيضاً في عشرات المنازل المحيطة بالمقاطعة و منها منزل يوسف إلياس الذي دمر منزله بشكل كبير و عندما عاد صباح اليوم التالي وجد حجارة مبنى المقاطعة المهدم في صالون بيته الذي كان ، من قوة التدمير .

و حمد يوسف إلياس ، الله ، على نجاته و أولاده و زوجته من موت محقق لو تأخر عن الخروج و مغادرة المنزل .

و اعتبر السكان الذين يفصل بينهم و بين مبنى المقاطعة شارع القدس - الخليل أنه لولا العناية الإلهية لوقعت مجزرة حقيقية في صفوف المدنيين .

و من هؤلاء المواطن نمر القنواطي الذي يعيش في مبنى مكون من 4 شقق يضم أشقائه و عائلاتهم ، و الذي قال إنه منذ أن استشعروا أن القصف اقترب تركوا هذه الشقق و اختبئوا مع أبنائهم في بيت الدرج بينما كان الأطفال يعيشون في رعب كبير و حقيقي و بعضهم أصيب بصدمات نفسية و بحالات من القىء .

و أصيب نمر بشظية من صاروخ في رجله و اعتبر ما قامت به حكومة الاحتلال إرهاباً حقيقياً .

و عرفت القوة التدميرية الكبيرة للصواريخ الاحتلالية من النار التي كانت مشتعلة في مبنى المخابرات صباحاً بعد ساعات من قصفه ، و رأيت ذلك عندما وصلت إلى المكان ، و كذلك من التدمير الذي أصاب عشرات المباني .

و لم تقتصر الأضرار على المباني القريبة من المقاطعة بل شملت مباني أخرى بعيدة عنها دمر زجاجها و أبوابها بفعل قوة ضغط الهواء الذي أحدثه القصف . و لم يكن كل ذلك التدمير إلا مقدمة لخطوة تالية و تدمير أكبر .

(4)

و في 2002/3/8م ، بدأت ما أسمته حكومة الاحتلال وقتها أكبر عملية عسكرية برية (.. فيما بعد كان هناك أكبر منها) ، و قصفت قوات الاحتلال مخيمي عايدة و الدهيشة خلال اقتحامها لمحافظة بيت لحم الذي بدأ فجر ذلك اليوم و على عدة محاور و بمشاركة الدبابات بتغطية من المروحيات و الطائرات الصهيبونية .

و بدأ الشهداء و الجرحى يتساقطون منذ ساعات الفجر الأولى ، بينما كان المقاومون مستعدين لمواجهة العدوان الجديد و الجديد بأكثر مما كان التوقع ، و كان الأهالي و المقاومون في مخيمي عايدة و الدهيشة اتخذوا إجراءات و ترتيبات لتعزيز صمودهم في المخيمين في وجه أي حالة اقتحام مرتقبة ، و وضعوا المتاريس و الإطارات المطاطية الكبيرة على مداخل المخيمين و في الزوايب و الأزقة الداخلية .

و كان أول شهيد يسقط فجراً ، هو الفتى "سائد سعود عيد" الذي قصفته الطائرات الاحتلالية بينما كان يزرع عبوات ناسفة على مدخل مخيم الدهيشة ، و هو أحد جيران آيات ، و عندما قصفته طائرات الاحتلال ، كانت هي من منزلها تشاهد ذلك .

و توالى سقوط الشهداء : الشهيد إبراهيم الأعرج قائد كتائب الشهيد أبو علي مصطفى في مخيم عايدة ، و الحاج سليمان الدبس قائد سرايا القدس ، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في نفس المخيم ، و هو شقيق الشهيد سلامة الدبس الذي استشهد قبل ذلك بخمسة أشهر في اقتحام لمخيم عايدة سقط فيه العديد من الشهداء ، و استبسل المقاومون في مخيمي عايدة و الدهيشة ، كل على حدة ، بينما رفضت قوات الاحتلال وساطات قام بها الصليب الأحمر الدولي للسماح لسيارات الإسعاف الفلسطينية للدخول إلى مخيمي عايدة و الدهيشة لنقل الجرحى .

و كانت قوة العدوان عنيفة : إطلاق قوات الاحتلال قذائف الدبابات على المخيمات و احتراق منازل و سقوط شهداء و تنفيذ حملات اعتقال و محاصرة المستشفيات .

و قصفت المقاومة الفلسطينية مستوطنة "جيلو" بقذائف الهاون رداً على ما وصفته حكومة الاحتلال بأنه أوسع عدوان برّي على الأرض الفلسطينية منذ عام 1967م .

و أعلنت وحدة الشهيد "سائد عيد" الذي استشهد فجر ذلك اليوم و هو يدافع عن مخيم الدهيشة ، مسئوليتها عن قصف المستوطنة الصهيونية المقامة على أراض بيت جالا و تعتبرها حكومة الاحتلال جزءاً من القدس المحتلة ، و في تبريرها للغزو قالت حكومة الاحتلال إنه كان لحماية مستوطنة "جيلو" من نار المقاومين و جاء القصف لينسف أهداف الحملة العسكرية الاحتلالية من البر و الجو .

و استمرت الاعتقالات و احتلال المنازل و تحويلها إلى نقاط عسكرية .

و بالقرب من منزل "آيات" كان العدوان الاحتلالي لا يعرف حدوداً ، حين أصاب الرصاص الاحتلالي الشاب عيسى زكريا فرج و هو بين زوجته و طفله الصغيرة الوحيدة .

و حاولت آيات مع آخرين إنقاذ حياته لكنه استشهد متأثراً بجراحه و لفظ أنفاسه الأخيرة أمام أعينها .

و في اليوم نفسه اغتال المحتلون صديقي و زميل الدراسة الدكتور أحمد نعمان مدير مستشفى اليمامة في بلدة الخضر .

و أصدر تلفزيون بيت لحم المحلي المساهم فيه نعمان بياناً أشار فيه إلى أنه بعد أن تم محاصرة مستشفى اليمامة مدة عشر ساعات تم التنسيق مع الارتباط (الإسرائيلي) بواسطة الصليب الأحمر الدولي في القدس و من ثم الصليب الأحمر الدولي في بيت لحم للسماح لنعمان بالتحرك من منزله للإشراف على عمل المستشفى و مساعدة الجرحى و اشترط المسؤول (الإسرائيلي) في الارتباط المدعو الكابتن "جو" أن يخرج نعمان من منزله الذي يبعد خمسين متراً عن المستشفى بقميص أبيض و أن لا يلبس جاكيت . و أن يتحرك بسيارته التي تم أخذ رقمها و تم الاتصال من الضابط المدعو "جو" بنعمان على هاتفه الخليوي و أبلغه أنه سمح له بالتحرك و أن قنصة الاحتلال أو ضباط الموقع لن يمسوا حياته ، فتوجه نعمان إلى مستشفى بيت جالا الحكومي لإحضار بعض النواقص الهامة للمرضى و الجرحى و سمح له جنود الاحتلال على الحاجز الأول بالمرور و ما إن غادرهم و على بعد مائة متر من المستشفى فتح قنصة الاحتلال المتمركزين على مدخل مخيم الدهيشة القريب النار عليه من رشاشات دبابة تبعد عن سيارة نعمان 200 متر باتجاه رأسه و صدره مما أدى إلى تفجيت جمجمته و تحطيم صدره فاستشهد على الفور .

و حمل تلفزيون بيت لحم قيادة الاحتلال المسؤولية التامة عن هذه الجريمة و خصوصاً الضابط المسمى "جو" و رئيس هيئة أركانه و وزير الحرب الصهيوني و تعهد البيان بالعمل لتقديمهم أمام محاكم جرائم الإنسانية مهما طال الزمن .

و ربما لم يكن ذلك يعني شيئاً لأطفال الدكتور نعمان الستة ، الذين تركهم وراءه .

و تمكن المقاومون ، من جديد ، من إطلاق النار على مستوطنة "جيلو" من مدينة بيت لحم رغم الحملة العسكرية المستعرة .

و في المساء كان مناضل آخر من المعنية بهم "آيات" يسقط : جاد عطا الله الذي كان يقود المقاومة عن مخيم الدهيشة .

استشهد جاد محمود عطا الله ، عند منتصف الليل ، إثر إصابته من قذيفة احتلالية أطلقت على حارة أهل زكريا في المخيم و أدت إلى استشهاده و اشتعال النار في منزل الشهيد عبد القادر أبو لبن أحد شهداء انتفاضة الأقصى ، و منازل مجاورة .

و أصبح عطا الله ، الشهيد السابع في اليوم الأول للغزوة الجديدة ، حيث سقط مقاتلون و ربة بيت و مدير مستشفى ، و أصيب مع عطا الله رفيقه في المقاومة "أحمد إسحاق" ، الذي استشهد فيما بعد .

و مع توالي الحصار و العدوان و المقاومة ، كتبت في حينها ، ما أطلقت عليه ، يوميات الحصار :

الشيخ

مات محمد أبو لبن ... !

مات الشيخ محمد أبو لبن أمام مسجد المخيم المزمّن فجأة ، و رغم كبر سنه و مرضه و انزوائه منذ سنوات لم يخطر ببالنا أنه يمكن أن يموت و في هذا الظرف بالذات .

قبل منتصف ليلة الخميس اتصل بي ابنه صالح ليخبرني عن ميعادٍ لاجتماع سيعقد في المحافظة صباح اليوم التالي لبحث العدوان الذي تتعرّض له محافظة بيت لحم ، و لا أعرف لماذا نسيت أن أسأله عن صحة الشيخ ، و بعد ساعات كانت حكومة الاحتلال تبدأ ما أسمته أكبر حملة برية لجيشها في المناطق الفلسطينية منذ حرب 1967م .

و في اليوم التالي للعدوان مات الشيخ الذي كنا نستيقظ فجراً على صوته ، و ننام ، بعد ميقات العشاء ، على صوته .

كان متديناً دون تعصّب .. اجتماعياً دون إصدار أحكام على الناس ولذا لم يكن مستغرباً أن تكون (الأفواج) الأولى من أولاده في الستينيات من النشاط اليساريين ، الذين انتهى كفاحهم نهاية درامية بسبب اكتوائهم بالمرض المزمّن لفصائل العمل الوطني الفلسطيني ، و هو ما يتعلق بقيادة أدت سياساتها إلى إخراجهم في النهاية من مجمل العمل الوطني و الكفاح المقاوم .

و لم يكن غريباً أيضاً أن يكون ابنه صالح من أوائل الذين مارسوا الكفاح المسلح في المخيم بعد حرب الأيام الستة ، و كذلك أبناؤه الأصغر الذين كانوا نشطاء في تنظيم مارس الكفاح المسلح .

مات الشيخ و لم يعرف أبناؤه ماذا يفعلون و أين سيدفنونهم فجنود الاحتلال لا يدركون من هو الشيخ و لا يعرفون تقاليد الموت عند الفلسطينيين .

و في النهاية تم دفن الشيخ أمام منزله) .

الدكتور ..

يوم الجمعة اغتال قناصة الاحتلال صديقي أحمد نعمان مدير عام مستشفى اليمامة التخصصي في بلدة الخضر .

لم يعرف لنعمان أي نشاط سياسي في الفصائل الفلسطينية التي كنّا نقبل عليها و تقبل علينا أيام الدراسة . و كان يختلف عن كثير منا ، باجتهاده و تفوّقه و تواضعه و ترتيبه و ملابسه الأجل من ملابسنا ، فقد كان ابناً لتاجر عصامي ، أحسن تربية أبائهم و لم يفسدهم بتدليعهم .

و عندما تقدّمنا لامتحان التوجيهي معاً في مدرسة الخضر ، كانت حرب بيروت (عام 1982م) التي قادها مجرم الحرب شارون في أوجها ، و كنا نهتم بأخبار تلك المعارك أكثر من اهتمامنا بالامتحانات التي ستقرّر (مسيرنا) فكنت أخرج كلّ نصف ساعة من قاعة الامتحان كي أستمع إلى آخر الأنباء من الراديو الصغير الذي بحوزتي و لأعود لأخبر أحمد و رفاقنا بأخر الأنباء .

و بعده ذهبت أنا إلى السجن و هو ذهب للدراسة في الخارج .. !

و لم يكن يخطر ببالنا أنه سيلقى حتفه برصاص جنود مجرم الحرب شارون بعد كلّ هذه السنوات و في سيناريو يشبه سيناريو حرب لبنان .

الضابط الصهيوني المدعو "جو" في الارتباط العسكري الصهيوني سمح لأحمد بعد مفاوضات و تدخلات و ساعات من الانتظار بالخروج من منزله إلى مشفاه المحاصر و عندما خرج قتله القناصة .

اغتيال الصهاينة صديقي الذي كنت أرشحه ليكون وزيراً للصحة في أي حكومة وطنية فلسطينية شابة من التكنوقراط في الدولة العتيقة التي ربما ستأتي في يوم من الأيام .. !

و لكنه رحل مبكراً و لن أنسى كيف زوّدي بالمعلومات عندما خضت على صفحات الجريدة التي أكتب فيها معركة ضد أباطرة الدواء ، رغم أن مصلحته الشخصية و المالية كانت مع الطرف الآخر .

كان صديقاً و نزيهاً سأفتقده كثيراً) .

المقاتل ...

اسمه جاد محمود عطا الله من الجيل الجديد من مناضلي مخيم الدهيشة ، كان يعرف مثلنا كلنا بأن الاقتحام قادم ، و مثل كثير منا لم يفكر حتى بالخروج من المخيم مثلما فعل الكثير منا أيضاً .

أمضى يوم الجمعة ، اليوم الأول في الحصار ، في تفقد مواقع المقاومين و تزويدهم بالأسلحة و المعدات و البقاء على أتم الاستعداد لصد أي هجوم .

و كان جنود الاحتلال يعرفون خطورته و يحقدون عليه مثلما كنا ندرك مدى أهميته في المشاركة في ملحمة الدفاع عن المخيم التي نتشوق لها . و يبدو أن جنود الاحتلال ترصدوه بأجهزتهم الأمريكية الحديثة و عندما حددوا موقعه أطلقوا على سيارته قذيفة موجهة بالليزر فقطعته أشلاء .

و عندما تسللت نهاراً إلى حيث موقع الجريمة البشعة كان رفاق السلاح و المواطنون متجمهرين حول السيارة ليزدادوا حقداً على الاحتلال و ليعاهدوا الشهيد على أنهم سيصمدون كما لو كان موجوداً بالفعل .

كنا نحبه و كانوا يكرهونه .. !) .

الطفل ..

ابني هادي الذي لم يتجاوز الأعوام الثلاثة يريد أن يشارك المقاومين في (الطخ) على (اليهود) و تعزّزت هذه الفكرة برأسه عندما وقف في أذيال المقاومين في الحارة التي نسينا فيها و أدرك المهمة التي وجدوا من أجلها .

و لا يكفّ عن استخدام مصطلحات الحرب و المقاومة .

ابني هادي ، سمي شهيد المقاومة اللبنانية هادي نصر الله ابن الشيخ حسن نصر الله ، و الذي ولد بعد استشهاد هادي بأيام بصر الآن على إنزال إحدى مروحيات الأباتشي التي تحلق في سمائنا لسبب واحد كي يركب عليها و يطير و يطبخ اليهود..!) .

(5)

استمر الحصار و العدوان ، و أخذ المواطنون يشيّعون شهداءهم بشكل جماعي ، و بدون حضور جماهيري كبير بسبب الاحتلال المباشر و حظر التجوال و أعمال المقاومة .

و شيّع أربعة شهداء مرة واحدة : "سائد سعود عيد" الفتى زارع العبوات الشجاع ، و أحد جيران آيات ، و الشهيدة "هدى محمود البرميل الخواجا" و هي معلّمة مدرسة و قتلها الصهاينة بعد اقتحام منزل عائلتها في مخيم عايدة و فتح النار على أفراد العائلة ، و القائد "جاد محمود عطا الله" و الشهيد "عيسى زكريا فرج" الذي قتل من قبل قناص احتلالي و هو في منزله في مخيم الدهيشة .

و وصلت جنازين الشهداء الأربعة إلى مقبرة الشهداء في مخيم الدهيشة من مستشفى بيت جالا الحكومي بطرق التفافية بسبب تجريف قوات الاحتلال للشارع الرئيس المؤدي إلى المخيم و السيطرة عليه و نشر القناصة على الأبنية الذين يطلقون النار على أية أهداف متحركة .

و كانت جنازتهم حزينة مثل استشهادهم ، و تمت الصلاة على جنازينهم في أرض المقبرة لعدم التمكن من الوصول إلى أي مسجد ، و دفنوا سريعاً لأن بنادق المحتلين كانت ما تزال مشرعة .

و استمر سقوط الشهداء ، فانضمّ إلى قافلة الشهداء عماد الصوفي و هو أحد أفراد الأمن الفلسطيني برتبة رقيب أول متأثراً بجراح كان أصيب بها أثناء تصديّه مع المقاومين لعملية اقتحام مخيم عايدة و التي أسفرت عن استشهاد ثلاثة آخرين هم الحاج سليمان الدبس قائد الجناح العسكري لحركة الجهاد في المخيم و إبراهيم الأعرج قائد كتائب أبو علي مصطفى في المخيم و المربية هدى البرميل الخواجا .

و كان مؤثراً بشكل خاص استشهاد الطفلة نداء سليمان العزة - 15 عاماً - استشهدت متأثرة بجراح أصيبت بها في صدرها نتيجة نيران أطلقت من بنادق جنود الاحتلال ، عندما كانت في منزلها في مخيم العزة في مدخل مدينة بيت لحم الشمالي .

و تخيلت "نداء" عندما عرفت باستشهادها ، تحمل كتاباً عندما أصابتها رصاصة القناص ، فهي كانت إحدى الطالبات النشاطات ، في انتسابها للمكتبة العامة في المدينة ، التي وضعت مديرتها الأجنبية المتطوعة صورتها في المكتبة ، و كانت تذكرني دائماً بها ، حتى بعد فترة من استشهادها المؤلم .

و كان على جثمانها الصغير أن يعاني حتى بعد أن توقفت الدماء عن الجريان في عروقه ، فتعدّر دفن الشهيدة في المقبرة الإسلامية قرب قبة راحيل ليس بعيداً عن المكان الذي تقطن فيه نداء ، بعد أن تحولت إلى ثكنة عسكرية كبيرة ، و زحف أهلها و قلة من المواطنين إلى مدينة بيت ساحور و دفنوها هناك ، بجوار شهداء آخرين سقطوا على مدى سنوات النضال و الكفاح و الألم .

و بدأت قوات الاحتلال اقتحام مخيم الدهيشة المحاصر منذ يومين ، وسط مقاومة عنيفة من المقاومين الذين أعلنوا مسؤوليتهم عن تكبيد قوات الاحتلال ثلاثة إصابات في الجنود بواسطة العبوات الناسفة .

و وقعت اشتباكات عنيفة مع قوات الاحتلال التي تقدّمت بدباباتها و بقصف مدفعي مكثف ، و دخلت قوات الاحتلال بعض الأحياء الشرقية للمخيم و اقتحمت منزل الشهيد جاد محمود عطا الله .

و صعدت قوات الاحتلال بإطلاق صواريخ أرض - أرض من مستوطنة "جيلو" جنوب القدس على منطقة جامعة بيت لحم و أدى ذلك إلى إحداث تدمير في بعض مرافق الجامعة و في مدرسة راهبات الوردية المجاورة .

و بررت سلطات الاحتلال قصفها للمنطقة بأنه جاء ردّاً على استهداف المقاومة بقذائف الهاون لمستوطنة "جيلو" .

و لم يكن مغزى استهداف مستوطنة "جيلو" خافياً ، و اعتبر نجاحاً كبيراً للمقاومة خصوصاً و أن أحد أهداف هذه الحملة هو منع إطلاق النار باتجاه تلك المستوطنة الصهيونية المقامة على أراضي كان الاحتلال اغتصبها من أهلها سكان مدينة بيت جالا بعد الاحتلال لما تبقى من الأراضي الفلسطينية عام 1967م .

و نسفت قوات الاحتلال منزل الشاب يحيى دعامسة ، أحد قادة المقاومة ، الذي ركّز عليه الإعلام الصهيوني باعتباره المطلوب الأول لقوات الاحتلال في هذه الحملة .

و جلبت قوات الاحتلال مراسلي وسائل إعلامها إلى منزل دعامسة ، و منازل أخرى ، لكي تربهم ما اعتبرته (مختبرات) لصناعة الأسلحة زعمت أنها عثرت عليها ، أحدها على الأقل يعود لدعامسة ، و هو ما نفتته المصادر الفلسطينية التي قالت إن قوات الاحتلال لم تستطع التوغل في مخيم الدهيشة بسبب المقاومة و بأن الإعلان عن العثور على مختبرات أسلحة هو نوع من التضخيم و لتبرير ارتكاب جرائم .

و فيما بعد علمت بأن بعض الصحفيين الذين أطلعوا على (مختبرات) الأسلحة وجدوا ما عرض عليهم من مواد (المختبرات) أمراً مثيراً للضحك ، و لكن كان مجرم الحرب "شارون" بحاجة لتغطية فشله بالقبض على أفراد المقاومة ، بالإعلان عن نجاحات ... أية نجاحات .

و المثير أن قوات الاحتلال كانت أعلنت قبل أربعة أيام من الوصول إلى منزل دعامسة بأنها اغتالته قرب قرية طمون في شمال الضفة الغربية .

و تنسب سلطات الاحتلال لدعامسة المسؤولية عن إرسال استشهاديين و إطلاق النيران على مستوطنة "جيلو" طوال أشهر انتفاضة الأقصى ، و كانت أجهزة السلطة اعتقلته بناء على طلب سلطات الاحتلال بسبب ذلك ، و لكن زملاءه ردّوا على اعتقاله من قبل السلطة بإطلاق النار بكثافة على "جيلو" .

و في النهار التالي ، كانت سلطات الاحتلال تعتقل نحو 1500 مواطناً من مخيم الدهيشة ، و تحتجزهم لمدة 16 ساعة ، في معسكر أقيم على عجل ، الصور الأولى المثيرة التي وزّعها وكالات الأنباء عن الشبان الفلسطينيين الذين يتم وضع عصابات على عيونهم و تقييد أيديهم ، و أثارت العالم ، التقطت لهؤلاء ، و كنت أحدهم ، و لكنني غادرت ، في غفلة عن جنود الاحتلال ، مع زملاء من الصحفيين .

و استعرت شهوة التدمير لدى قوات الاحتلال ، فدمّرت أثاث عشرات المنازل في مخيم الدهيشة و هدمت أسوار المنازل و المدارس بالإضافة إلى تدمير شبكات المياه و الصرف الصحي و الشوارع الرئيسية .

و أصيب خلال هذه الحملة 50 مواطناً من بينهم أطفال و تم الاستيلاء على عشرات البنايات و المنازل داخل مخيمات الدهيشة و العزة و عابدة و بلدة الدوحة ، و تم منع الطواقم الطبية من تقديم الإسعافات للجرحى و المصابين و حتى منع دفن الموتى في المقابر .

و دمّرت منزل الشهيد محمود المغربي ، و كذلك منزل شقيقه أحمد المغربي أحد المطلوبين لها و الذي لم تتمكن من إلقاء القبض عليه ، أو اغتياله .

و عندما فجّرت قوات الاحتلال منزل عائلة المغربي لم يدمّر المنزل فقط بل أحدث التفجير تدميراً في المنازل المجاورة ، و رغم أن عائلة المغربي باتت ليلتها في العراء إلا أن رب العائلة و أفراد أسرته بدوا في حالة معنوية عالية جداً .

و كانوا يدركون المخاطر التي نتجت و ستنتج عن اختيار ابنهم "أحمد" للطريق الذي يسير عليه و الذي اختاره من قبله والده و تعرّض للاعتقال و الإبعاد في السنوات الأولى لاحتلال ما تبقى من الأراضي الفلسطينية عام 1967م ، و كذلك ابنهم الآخر "محمود" الذي اغتالته قوات الاحتلال بعد إلقاء القبض عليه حياً في كمين نصّبه قوات الاحتلال له أثناء تنفيذ عملية للمقاومة في مدينة بيت جالا و كان ينسب له العديد من العمليات الناجحة ، و تحمل أحد مجموعات كتائب الأقصى التي تنشط عسكرياً ضد الاحتلال اسم الشهيد محمود .

و كان واضحاً أن هدم منزل عائلة المغربي و قبل ذلك تدمير منازل أعمامه هو استمرار سلطات الاحتلال باستهداف أقارب النشيطين الفلسطينيين و هو أسلوب استخدم على نطاق واسع منذ بداية الاحتلال في حزيران 1967م ، حيث كان يتم اعتقال أي فرد من العائلة إذا لم تتمكن هذه القوات من اعتقال المطلوب لها ، و كذلك هدم منازل عائلات الفدائيين .

و في الأسابيع الأخيرة ، قبل هذه الغزوة ، أبادت سلطات الاحتلال عائلة "حسين أبو كويك" الناشط البارز في حركة حماس ، في جريمة بشعة ، عندما استهدفت سيارة زوجته التي كانت عائدة بأطفالها من المدارس في مدينة البيرة .

و انسحبت قوات الاحتلال ، جزئياً ، بعد التدمير و الاعتقال ، و في الأيام التالية اشتبك المقاومون مع قوات الاحتلال ، التي اتخذت لنفسها استراتيجية جديدة ، بالخروج و الدخول المفاجئ إلى وسط المدن .

و فتحت فصائل المقاومة الفلسطينية جبهة جديدة ضد مستوطنة "جيلو" ، و أمطر المقاومون هذه المستوطنة بوابل من النيران جعلت سكان المستوطنة ينزلون إلى الملاجئ .

و استهدف المقاومون أيضاً جيوب للاحتلال التي بقيت بعد الانسحاب الجزئي ، و استمر المحتلون بقصفهم لمناطق سكنية متعددة . و في تلك الحالة القلقة ، سقط آخرون ، و كلّ واحد منهم كان حكاية لوحده .

(6)

"جميل"

في يوم 2002/3/24 ، استشهد في مدينة رام الله "جميل نواورة عبيات" متأثراً بجراح أصيب بها في اليوم الأول لغزو قوات الاحتلال لرام الله . و لحق بذلك بشقيقه الشهيد جمال الذي استشهد ، في بيت لحم يوم 2001/10/18 في عملية اغتيال نفذتها قوات الاحتلال عن بعد .

و جميل مهندس إلكترونيات عمل في إذاعة فلسطين و سكن في رام الله قرب عمله ، بينما كان شقيقه جمال مقاتلاً و نائب قائد كتائب شهداء الأقصى في جنوب الضفة الغربية .

و في حين استشهد جميل برصاص الإرهاب الصهيوني العشوائي ، استشهد جمال مع رفيقه عاطف عبيات قائد كتائب شهداء الأقصى في الجنوب و رفيقهما الثالث عيسى الخطيب بتفجير سيارتهم التي زرعت فيها عبوة ناسفة مسبقاً .

و في حالتي الاستشهاد : استشهاد جمال و استشهاد جميل كانت الصدمة قوية ليس على الأهل و لكن أيضاً على الأصدقاء و المعارف و الرفاق ، و لكن سرعان ما يتحول هذا الحزن لدى الفلسطينيين إلى غضب ، و إلى رد كما يحدث عادة .

و لم تكن عودة الشهيد جميل إلى مسقط رأسه سهلة ، بسبب حواجز الاحتلال ، و لكنه تمكن من العودة بعد يومين من استشهاد ، و رقد إلى جانب شقيقه الشهيد جمال و شهداء آخرين دفنوا في مقبرة الشهيد "حسين عبيات" التي خصّصت للشهداء و لم تكفّ عن استقبالهم منذ بدء الانتفاضة .

"محمود"

يوم 2002/3/17 ، نعت كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح الشهيد المقاتل محمود عواد المالحى ، خلال تصديّ مجموعات المقاومة لقوات الاحتلال التي تقدّمت ظهر ذلك اليوم بهدف التوغل في وسط مدينة بيت لحم و هو الأمر الذي أحبطه المقاومون ببطولة .

كان عواد يعتبر من أكثر المقاتلين جرأة ، و عندما تقدّمت دبابة "ميركافا" الصهيونية ، وجدت أمامها مقاتلاً يشرع سلاحه متحدياً تكنولوجيا العدو ، فسقط شهيداً ..

و المؤثر في استشهاد محمود عواد هو موقف أمه اللاجئة من قرية المالحه التي حولتها سلطات الاحتلال إلى حيّ من أحياء القدس المحتلة و لم يبقَ من القرية سوى المسجد الذي احتار المحتلون ماذا يفعلون به ، فحولوه مرة إلى نادي ليلي ترتكب فيه الموبقات و مرة أخرى حولوا مئذنته إلى برج للحمام .

كانت والدته محمود فقدت شقيقاً لها في انتفاضة الشعب الفلسطيني الأولى الكبرى ، و هو الشهيد عيسى زرينة ، الذي أورث شجاعته على ما يبدو لمحمود ، و كان قاذفاً ماهراً بالمقلاع و كافة الأسلحة التي تحمل الحجارة إلى صدور جنود الاحتلال ، حتى سقط برصاصة قناص احتلالي في مخيم عايدة تاركا زوجة و أولاداً .

و عندما استشهد محمود حافظت ، أمه ، على رباطة جأش مثيرة للإعجاب ، و فرحت بهدية كان الشهيد اشتراها مبكراً بمناسبة يوم الأم ليقدّمها لها ، و لكنه غادر ، مثل كلّ الأمور الجميلة ، مبكراً ..

و بعد أقلّ من شهر على استشهاد محمود ، كان على الأم الصابرة أن تفجع باستشهاد ابن آخر لها هو عواد في عملية السور الوافي الاحتلالية ، كما سنرى فيما بعد .

ما أجملهن من أمهات ، من أين يأتين بكلّ هذا الأمل .. ؟!

"أكرم"

في ذلك اليوم 2002/3/17 ، تحدّى الشبان الفلسطينيون مجرم الحرب شارون ، و تخطّوا كلّ ترتيباته الأمنية ، و ضربوا في العمق .. هناك في مستوطنة "الثلة الفرنسية" بالقدس الشرقية .

في ذلك اليوم تسلل أحد الشهيد أكرم إسحاق النبتيتي - 24 عاماً - من مخيم عايدة ، و من كواد حركة الجهاد الإسلامي ، إلى مفرق الثلة الفرنسية و فجر نفسه بعملية استشهادية .

أراد أن يتحدّى إجرامهم و جبروتهم و أسلحتهم الثقيلة فأبدع بتقديم نفسه ، لينتصر عليهم .. !

و في الليلة السابقة على عملياته ، اقتحم جيش الاحتلال مخيم عايدة المحاصر .. و فتّش و اعتقل ، و في اليوم التالي خرج أكرم النبتيتي متحدياً و انتصر بجسده .. و انضم للاستشهاديين الفلسطينيين الذين يقومون بما يروونه مناسباً في معركة مريرة مع أحد أعنى الاحتلال في التاريخ .

و الشهيد النبتيتي من مواليد 1978م ، و هو عضو في سرايا القدس الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين التي أسسها مفكر فلسطيني منفتح دفع ثمناً لإيمانه بضرورة اقتران الفكر بالممارسة و هو الشهيد فتحي الشقاقي الذي شكل استشهاد إلهاماً لأجيال عديدة من الشبان الفلسطينيين .

و في وصيته المتلفزة قال أكرم بثقة كبيرة و هو واقفٌ و بجانبه الحقيبة التي رافقته في رحلته الأخيرة ، إنه ينفذ العملية الاستشهادية دفاعاً عن المقدسات الإسلامية و المسيحية في فلسطين و انتقاماً لدماء الشهداء الذي سقطوا برصاص الإرهاب الصهيوني و ذكر أسماء كأمثلة من مختلف القوى و التيارات السياسية و الفكرية في فلسطين .

و أشار إلى الشهيد سليمان الدبس قائد سرايا القدس في مخيم عايدة و الشهيد إبراهيم الأعرج قائد كتائب الشهيد أبو علي مصطفى في نفس المخيم و اللذان سقطا دفاعاً عن المخيم يوم 2002/3/8 برصاص قوات الاحتلال التي اقتحمت المخيم .

و تحدّث الشهيد أكرم بثقة عن عدالة القضية التي آمن بها و التي جعلته يختار هذا الطريق و عبّر عن إيمانه بتحقيق النصر في النهاية .

و قدّم عبارات مؤثرة وداعاً لعائلته و أصدقائه و لأبناء شعبه .

و ما قام به و يقوم به أكرم و رفاقه ، لا يجعل ما يقومون به غير مفهوم لدى ما يعتبره هؤلاء العدو الصهيوني و لكن في أوساط أخرى من رجال الدين المسلمين في العالم العربي و في أوساط متقنين من بينهم فلسطينيون مثل الدكتور إدوارد سعيد الذي وصف العمليات الاستشهادية بالأعمال البربرية في أحد مقالاته ، و هو ما يعتبر ليس فقط دلالة على استعلاء استشراقي عما يدور في المجتمع الفلسطيني و لكنه أيضاً جهلاً غير مبرر و موقف لا يمكن تفسيره أبداً بالنسبة للذين يقدّمون دمهم في سبيل قضية عادلة باقتناع كبير و مبدئية عالية و واعية .

و يشكل ما يقوم به أكرم و رفاقه ما يعتبره آخرون أنه أمر يجب أن يحتذى ، و مصدر فخر كبير لعائلاتهم ، و بثقة كبيرة قال أفراد عائلة الشهيد أكرم : نحن نحترم خيار أكرم .

و أشاروا إلى عوامل مباشرة أثرت في اتخاذه لقراره مثل قيام قوات الاحتلال بقتل جارة الشهيد عندما اقتحمت منزلها و أطلقت النار عشوائياً في المنزل عليها و على أطفالها .

و في المعركة الدائرة بين الاستعمار الصهيوني و الشعب الفلسطيني ، يفقد الأخير خيرة أبنائه و كوادره و لا يعزّي هذا الشعب إلا أنه في جميع التجارب التحررية السابقة كان يحدث نفس الشيء ، مع فارق أن معظم النخب الثقافية و السياسية في التجارب المشابهة لم تكن تعتذر عن نضال شهدائها مثلما يحدث في كثير من الأحيان في الحالة العربية و الفلسطينية .

و بعبارة أوضح لم تكن تخون دماء أبنائها ، مثلما يحدث في الحالتين الفلسطينية و العربية .. !

و في تلك الأيام أتاح الانسحاب الاحتلالي من المناطق التي احتلها في محافظة بيت لحم ، للمواطنين القيام بواجب العزاء في شهدائهم الذين سقطوا خلال الأيام الماضية.

و في مخيم الدهيشة الذي عاني من حصار مشدّد فتح أهالي المخيم بيت عزاء في قاعة مركز الشباب في المخيم لثلاثة من شهدائهم سقطوا خلال الغزو و هم "سائد عيد" الذي استشهد في اليوم الأول للغزو برصاص الاحتلال العشوائي ، و "جاد محمود عطا الله" أحد أفراد المقاومة الذي استشهد بعملية اغتيال مدبرة ، و الشهيد "عيسى زكريا فرج" و هو مدني قتلته قناص احتلالي و هو في منزله فاستشهد تاركاً زوجة و طفلين صغيرين .

و كان استشهاد فرج ، كما اعتقد مقربون من "آيات" أحد العوامل المؤثرة في قرار آيات الذي اتخذته لاحقاً . كانت "آيات" تنتظر و تسمع و تشعر و تتألم ، فاتخذت قراراً ، لتكون مثلها مثل آخرين من أبناء جيلها الأكثر من رائعين ..

عندما جلست في مواجهة أبو سمير أقنعت نفسي بأنني كنت أعرف كيف فكرت آيات و كيف قرّرت ، إنها مسيرة طويلة ، شعلة سلّمها أجيال من الفلسطينيين إلى آخرين ، حتى و لو لم يكن التسليم في احتقالات رسمية أو ظاهراً ، أو حتى محسوساً

ما يقوم بها هؤلاء الفتية و الفتيات ، هو أنهم يلتقطون ، بمهارة يحسدون عليها (متطلبات المرحلة) في عمر القضية المؤلمة و المزمّنة ، فيتصرفون وفق ذلك .

أجيال تحمل الحجارة و أخرى تجرّب السلاح و ثالثة تكتشف أن سلاح (الاستشهاد) : قوة كامنة متشظية و قادرة ، و دون انتباه كافٍ أو حتى أدنى انتباه لجهاذة المناقشين من الكبار : أكاديميون و سياسيون و وطنيون مرتدّون و مثقفون مستشرقون و آخرون باعوا تاريخهم بأموال المنظمات غير الحكومية أو بعبارة أوضح بأموال أجهزة المخابرات الأمريكية و غيرها من نظيراتها الغربية .. و العربية .

كان الإرهاب بادياً على أبي سمير ، فهو لم يجد أية فرصة لالتقاط الأنفاس منذ غياب آيات .. !

فبعد غيابها ، ترك المنزل و أولاده خشية القمع الاحتلالي ، عندما تقدّمت الدبابات و الطائرات الاحتلالية لتنفيذ عملية (السور الواقى) في محافظة بيت لحم و التي ستكون الأعنف و الأكثر خطورة .. !

و كان متوقعاً أن يكون المنزل الذي ولدت فيه و تربّت و خرجت منه "آيات" ، أحد أهداف الحملة ، و هو ما كان كذلك و لكن في ظروف مختلفة .

و عندما نفذت "آيات" عملياتها ، عدّت اختراقاً لأجهزة الأمن الصهيونية التي كانت تضرب طوقاً محكماً على محافظة بيت لحم ، و تحلّت قوات الاحتلال بشكل جزئيّ مدينة بيت جالا الواقعة على مرتفعات تطل على مدن و بلدات محافظة بيت لحم .

و أخذ السكان قام بتخزين المواد التموينية تحسباً للعدوان المقبل الذي لم تخفِ المصادر الصهيونية الإعداد له خاصة بعد نجاح "آيات" بتجاوز الحواجز الاحتلالية الأمنية.

و في اليوم التالي ، لاستشهاد آيات (2002/3/30) استشهد الشاب أحمد إسحاق في إحدى المستشفيات الأردنية متأثراً بجراح أصيب بها عندما كان برفقة الشهيد جاد و تم قصف سيارتهما .

و انطلقت مسيرات جماهيرية إلى منزل الشهيد في مخيم الدهيشة ، حمل المشاركون فيها الأعلام الوطنية و أعلام الفصائل الوطنية و الإسلامية و هتفوا منددين بجرائم الاحتلال .

و تجمّع مئات المواطنين في منزل والد الشهيد مهنئيه باستشهاد ابنه ، و وصل جثمان الشهيد من الأردن حيث كان يعالج ، في ظروف غاية في الصعوبة ، و قطعت سيارة الإسعاف التي حملت الجثمان طرق جبلية وعرة بسبب إغلاق الطرق و الحصار المشدّد ، و عندما شيعت الجماهير الجثمان ، عبرت عن خيبتها بالحكام العرب ، و هو ما فعلته أجيال سابقة من الفلسطينيين اتهمت الحكام العرب بالتخلّي عنهم .

و في هذه الأثناء كان مركز الحدث الساخن هو رام الله ، و لكن كانت نذر السحب تتوقع أن ينتقل إلى بيت لحم ، و هرع مندوبو وكالات الأنباء العالمية إلى المدينة في انتظار العدوان المقبل ، بينما استمر القصف الاحتلالي لعدة مواقع حيوية في مدينة بيت لحم .

و استمر أيضاً المقاومون بإطلاق قذائف الهاون على مستوطنة "جيلو" و أمطروها بنيران أسلحتهم ، و وزّع المقاومون أنفسهم على شوارع البلدة القديمة التي كان من المتوقع أن تكون الهدف الأساسي لقوات الاحتلال ، بعد أن كانت المخيمات هي الأهداف في التوغلات السابقة .

و وصل عشرات من النشطاء الأوروبيين الذين اعتصموا في ساحة المهد بمشاركة العديد من المواطنين للتعبير عن رفضهم للاحتلال و للإعلان عن تصميمهم للتصدّي لأي عدوان احتلالي يمس المدنيين و قالوا إنهم سيمكثون في منازل المواطنين لدى بدء قوات الاحتلال توغّلها الواسع المتوقع .

و في مثل هذه الأجواء المتوترة هزّ انفجار عنيف ، يوم 2002/3/31 ، مدينة أفرات الاستيطانية المقامة على أرض بلدة الخضر ، و تبيّن أنه عملية استشهادية جديدة ، بعد عملية آيات التي لم يبقَ منها المحتلون بعد .

و نفذ العملية الجديدة جميل خلف حميد (18 عاماً) و اعتبرت العملية ، بحق ، اختراقاً جديداً و هاماً لما قامت به قوات الاحتلال من تعزيزات أمنية و حصار للمحافظة ، و كذلك تحدياً لإجراءات الأمن في مدينة "أفرات" الاستيطانية و التي تعتبر من أهم المستوطنات الصهيونية في الأرض الفلسطينية المحتلة منذ عام 1967م .

و بتاريخ (2002/4/1) بدأت قوات الاحتلال عملياتها العسكرية الكبرى في المحافظة و احتلت مدينة بيت جالا .

و اعتدت قوات الاحتلال على مسيرة سلمية للمتطوعين الأجانب الذين قدموا ليكونوا دروعاً بشرية في وجه المحتلين ، و انطلقت المسيرة بمشاركة العديد من المواطنين من مدينة بيت لحم باتجاه مدينة بيت جالا و هم يهتفون ضد مجرم الحرب شارون و يطالبون بانسحاب قوات الاحتلال فوراً من المناطق التي تم احتلالها . و استمرت قوات الاحتلال بتقدمها براً و جواً و بإمكانات عسكرية هائلة و غير معهودة ، و بدأت بالاستيلاء على منازل المواطنين و إخراج سكانها منها و تحويلها إلى ثكنات عسكرية . و تمكنت كتائب شهداء الأقصى من مقتل ضابط صهيوني قرب مستوطنة "هار حوما" المقامة على "جبل أبو غنيم" شمال بيت ساحور .

و لم يكن ذلك هو التحدي الأول الذي يواجه قوات الاحتلال المؤلفة ، ففي مساء نفس اليوم ، تمكن الاستشهادي رائد الشوعاني من مخيم الدهيشة من الوصول بسيارة مفخخة إلى القدس المحتلة و تنفيذ عملية استشهادية ، و رفع ذلك من معنويات المواطنين و المقاومين الذين كانوا يستعدون لمعركة قاسية و طويلة .

و وقعت معارك حقيقية في شوارع البلدة القديمة في مدينة بيت لحم بين المقاومين و بين القوات الغازية المصحوبة بالطائرات و التي شكلت خطورة حقيقية على المقاومين ، و في صباح اليوم التالي (2002/4/2) وصلت آليات الاحتلال إلى مشارف ساحة المهد ، في مركز المدينة ، و أحاطت بهذه الساحة من مختلف الجهات .

و وجهت قوات الاحتلال التي دخلت المحافظة في ظلّ غطاء جوي من طائرات الـ 16 و مروحيات الأباتشي بمقاومة عنيدة خصوصاً على مشارف مخيم الدهيشة مما أدى إلى وقوع اشتباكات استمرت حتى ساعات الفجر .

كان الرصاص الصهيوني كثيفاً و يأتي من كل اتجاه ، و بدأ الشهداء يسقطون تباعاً : و كان أولهم المواطن عزيز العمري ، 60 عاماً .

و دارت حرب شوارع في ساحة المهد و الأحياء المجاورة لها ، بين قوات الاحتلال و المقاومين الذين تحصنوا في ساحة المهد .

و اعتلى جنود الاحتلال البنايات المرتفعة في كافة أحياء بيت لحم ، و أطلقت المروحيات الاحتلالية نيرانها على مواقع في ساحة المهد ، وسط مقاومة عنيفة من المقاومين ، و حسب شهادات المقاومين فإن العديد من جنود الاحتلال قتلوا في أكملة نصبها المقاومون و لكن قوات الاحتلال لم تعترف بمقتل أي جندي من جنودها و ربما كان ذلك لأسباب معنوية و حسابات تتعلق بالشارع الصهيوني .

و مع استعارة المعارك ، أخرج المقاومون عدداً من المشتبهين بتعاملهم مع الكيان الصهيوني من مكان كانوا يحتجزون به و قاموا بإعدامهم .

و أدى القصف الاحتلالي إلى اشتعال النار في مسجد عمر بن الخطاب في ساحة المهد و يعتبر هذا المسجد أحد المساجد العمرية التي بناها الخليفة عمر بن الخطاب قبالة كنيسة المهد حفاظاً على دور العبادة للمسيحيين الذين تعهدوا باحترام حرية العبادة لهم في الوثيقة التي عرفت باسم (العهد العمرية) .

و في مخيم الدهيشة المحاصر من قبل قوات الاحتلال ، قام المقاومون بعملية جريئة بمهاجمة إحدى المجنزرات الاحتلالية بالرصاص و الأكواع الملغمة ، و هي قنابل بدائية الصنع .

و مع بزوغ فجر (2002/4/3) ، كانت قوات الاحتلال تفرض حصاراً مشدداً على ثلاثة مواقع رئيسية في بيت لحم و هي كنيسة المهد و كنيسة مار أفرام للسريان الأرثوذكس و مبنى بلدية بيت لحم .

و كان العديد من المقاومين و معهم عشرات من المواطنين دخلوا إلى كنيسة المهد احتفاءً من نيران المحتلين و خصوصاً الطائرات ، بينما كان في مبنى البلدية عددٌ من الشخصيات العامة و الصحفيين ، الذين اعتقلت قوات الاحتلال بعضهم بعد اقتحام المبنى و تحويله إلى ثكنة عسكرية ، أما كنيسة مار أفرام فتم اقتحامها لاحقاً .

و مع وصول قوات الاحتلال إلى كنيسة المهد و فرض حصار عليها كان سقط تسعة من الشهداء في شوارع البلدة القديمة نتيجة للعنف الاحتلالي غير المسبوق .

و من بين الذين سقطوا الشهيدة الحاجة سميرة عابدة و ابنها الحاج خالد عابدة و استشهدا بقذيفة أطلقت على منزل العائلة في حارة الفواغرة في البلدة القديمة في المدينة حيث تركزت المواجهات .

و كان سقوطهما مؤلماً و مؤثراً في الجماهير خصوصاً و أن جثتيهما بقيتا لأيام أخرى عديدة في المنزل بين أفراد الذين لم يتمكنوا من إخراج الجثتين بسبب عدم سماح سلطات الاحتلال لسيارات الإسعاف بالوصول إلى تلك المنطقة ، و كانت قوات الاحتلال تطلق النار على أي شيء متحرك و لا تستثني من ذلك سيارات الإسعاف أو غيرها .

و استشهد أيضاً عواد موسى المالحى و هو شقيق الشهيد محمود المالحى الذي استشهد ، كما ذكرنا سابقاً ، قبل استشهاد شقيقه عواد بأسبوعين ، و لم يستطع أهله دفنه مثل باقي الشهداء الآخرين .

و استشهد أكثر من عشرة شهداء من بينهم صديق قديم هو عمر شحادة محمد صلاحات - 39 عاماً - و الذي استشهد في ساحة المهد ، قرب مسجد عمر بن الخطاب ، بعد أن نزفَ حتى الموت من إصابة في رجله و لم يسمح لسيارات الإسعاف للوصول إليه .

و حمل استشهاد عمر مفارقة شخصية و وطنية .

ففي الخمسينيات من القرن الماضي أصيب المواطن شحادة صلاحات (70 عاماً) ، برجله في ساحة المهد برصاص جنود النظام الأردني خلال الهبة التي شهدتها الأراضي الفلسطينية الواقعة تحت الحكم الأردني آنذاك ضد الحلف الاستعماري المعروف باسم حلف بغداد .

و أورث ذلك الحاج شحادة عاهة مستديمة في رجله رافقته طوال السنوات التالية ، و مع ذلك كان أحسن حظاً من آخرين استشهدوا في تلك الأحداث مثل الشهيد الطالب عبد الله تايه من مخيم الدهيشة الذي أصبح رمزاً لنضال الحركة الطلابية آنذاك .

و استمر شحادة في عمله في المطعم الشعبي الصغير الذي يديره في ساحة المهد و من مكانه رأى الكثير من ممارسات احتلالية و نضال بطولي و مقاومة ، و لكنه لم يخطر بباله أن ابنه سيصاب في رجله أيضاً و في نفس المكان بعد أكثر من أربعين عاماً على إصابته .

و لكن هذا ما حدث مع ابنه عمر و هو أحد المقاومين عن ساحة المهد ، الذي أصيب في رجله و ترك ينزف في مكانه ، و لم يسمح لأي من الطواقم الطبية للوصول إليه ، حتى استشهد .

و لم يستطع أحد الوصول إليه أثناء نزيفه و حتى بعد استشهاد ، و تم نقله إلى المستشفى بعد يومين من استشهاد .

و الشهيد عمر صلاحات هو الشهيد الثاني للعائلة خلال شهرين ، حيث سقط ابن عمه الشهيد فراس صلاحات أحد كوادر كتائب الشهيد عز الدين القسام أثناء قيامه بدكّ مستوطنة "جيلو" جنوب القدس بقذائف الهاون ، و أثناء تشييع جثمانه في مسيرة حاشدة كان الشهيد عمر و آخرون يطلقون النار تحية للشهيد فراس ، و كان الشهيد عمر يدرك بأنه سيلحق بآبائه ما دام اختار طريق المقاومة و لكنه ربما لم يكن يعرف بأنه سيصاب في نفس الموضع من الجسم و في نفس المكان الذي أصيب فيه والده ، و رغم تغيّر الأنظمة التي توالى على فلسطين فإن هذا الشعب ما زال يدفع ثمن دفاعه عن حريته .

و قبل أشهر شعر عمر بحزن شديد على فقدان صديقه الشهيد عماد قراقع ، الذي سقط برصاص المحتلين قرب قبة راحيل شمال بيت لحم و أصيب ابنه و زوجته و شقيق زوجته بجروح .

و مثلما كان في استشهاد عمر مفارقة إصابته و إصابة والده في نفس المكان ، فإن الشهيد عماد استشهد في نفس العمر الذي مات فيه والده و تركه طفلاً عمره خمس سنوات ، و عندما استشهد عماد ترك ابنه ذي السنوات الخمس .

و كان سقوط عمر و مواطنيه ، بداية لما عرف فيما بعد أزمة حصار كنيسة المهد التي استمرت نحو أربعين يوماً .

(8)

كان حصار كنيسة المهد و بداخلها أكثر من 230 مواطناً ، له مدلولاته المختلفة : الدينية و السياسية و الاجتماعية ، و يعني أيضاً سجن نحو 150 ألف مواطن و هم عدد سكان محافظة بيت لحم ، في بيوتهم . و لم يكن تعزيز حصار الكنيسة ، وقف عمليات الاحتلال في المناطق الأخرى ، بل استمرت محاولات اقتحام المخيمات و البلدات و احتلال المباني و الأديرة و قصر عرفات الذي حوّل إلى سجن ، و قتل المواطنين . و مبكراً وجّه الأب إبراهيم فلّنتس راعي طائفة اللاتين في بيت لحم و الموجود داخل الكنيسة نداءً للعالم للتدخل لفك الحصار عن كنيسة المهد المقدسة لدى أكثر من مليار مسيحي و مسلم في العالم . و لم يكن ، فلّنتس ، يتوقع ، مثل كثيرين غيره ، بأن الحصار سيطول أكثر مما ينبغي ، و ستسيل دماء أكثر مما ينبغي أيضاً :

(4/4/2002م) :

في هذا اليوم عمدت قوات الاحتلال التي تطوّق كنيسة المهد لليوم الثالث على التوالي على تفجير باب الكنيسة الغربي المؤدّي إلى سكن رهبان الروم الأرثوذكس و إلى صالون طائفة الروم الأرثوذكس و هو المكان الذي استخدمه رئيس السلطة عرفات للإقامة خلال زيارته لمدينة بيت لحم منذ عام 1995م .

و هذا الباب باب صغير يؤدّي إلى رواق و ساحة واسعة ملاصقة لمركز كنيسة المهد و للحنية الغربية في الكنيسة التي صُلّي بها الخليفة عمر بن الخطاب لدى فتحه لفلسطين و صلت في نفس المكان وفق برتوكول أجيال متتابعة من المسلمين و المسيحيين .

و كانت قوات الاحتلال عزّزت طوقها على الكنيسة باحتلال المباني السكنية المحيطة بها و محلات سياحية و مطاعم في شارع مغارة الحليب المطل على الباب الغربي .

و في موقعها هذا فإن قوات الاحتلال لم تبعد كثيراً عن المقبرة الجماعية للأطفال بيت لحم التي ارتكبتها "هيرودس" قبل ألفي عام عند ولادة السيد المسيح عليه السلام و تضم بقايا جماجم الأطفال و عظامهم في قبور منحوتة بالصخر .

و رفض الموجودون في الكنيسة التسليم لسلطات الاحتلال و إخراج ما تقول هذه السلطات إنهم مطلوبون لهم و أكدوا بأنهم سيصمدون و لن يسمحوا لقوات الاحتلال باعتقال أيّ منهم .

و الحدث الأبرز في هذا اليوم كان استشهاد سمير إبراهيم سلمان قارع أجراس كنيسة المهد ، نتيجة إطلاق النار المتواصل على الكنيسة المحاصرة .

(4/9) :

استشهد خالد أبو صيام من أفراد الأمن الفلسطيني أثناء قيامه مع آخرين بإطفاء حريق شب في كاتدرائية اللاتين بجوار كنيسة المهد ، و كان الحريق شبّ بسبب إطلاق نار مكثف على المبنى المجاور للكنيسة التي يوجد بها المحاصرين .

و بعيداً عن الكنيسة اعتقلت قوات الاحتلال نحو 200 مواطن خلال حملة مدامات واسعة للمنازل و نقل المعتقلون إلى معسكر عتصيون الاستيطاني و إلى معسكرات أقيمت على عجل في مدينتي بيت جالا و بيت لحم .

و اعتقلت سلطات الاحتلال الجريح "معتصم سعود عيد" من أحد المستوصفات و هو شقيق الشهيد "سائد عيد" الذي سقط شهيداً و هو يزرع عبوات على مداخل مخيم الدهيشة في الثامن من شهر آذار/ 2002 .
و لم يسلم مستشفى العائلة المقدسة للأطفال من المداومة و الاقتحام و رابطت قوات الاحتلال حول المستشفى و حول جامعة بيت لحم التي احتلت بعض غرفها و مكتبة البعثة البابوية .

(4/10) :

استشهد مساء اليوم المواطن علي خليل محمد فرج - 60 عاماً - من مخيم الدهيشة ، بعد إطلاق النار عليه من قبل قوات الاحتلال قرب جامعة القدس المفتوحة في مدينة بيت لحم .
و كان فرج عائداً إلى منزله الذي غاب عنه بسبب استمرار الاحتلال الصهيوني للمحافظة ، و كان في مكان عمله لا يستطيع أن يغادره ، و لكن قوات الاحتلال التي تطلق النار على كل شيء متحرك لم تتركه يكمل الطريق إلى زوجته و أبنائه و أحفاده .
و في هذه الأثناء تستمر أزمة حصار كنيسة المهدي لليوم التاسع على التوالي ، بعد أن دفعت قوات الاحتلال باليات عسكرية إلى محيط الكنيسة و بأفراد من القوات الخاصة استعداداً ، على ما يبدو لاقتحام الكنيسة في أي وقت .

(4/12) :

بشكل يبدو و كأنه معاندة المستحيلات ، خرجت "عندليب طقاظة" (20 عاماً) من بلدة بيت فجار ، منتصرة على حرب شارون و لتكون الاستشهادية الفلسطينية الخامسة ، بتنفيذها عملية في سوق "محني يهودا" بالقدس الغربية ، و قتلت بذلك ستة من الصهاينة .
كانت "عندليب" تعمل في مشغل للخياطة ، و ليس لها أية انتماءات سياسية ، و عندما قرّرت أن تتخذ موقفاً ، خرجت من منزلها و قالت لوالدتها (سيأتي اليوم من يخطبوني ، أرجو أن تحسني استقباليهم) .
و تنكرت "عندليب" صاحبة الجسد الصغير بلباس امرأة حامل ، و نقدت عمليتها في السوق الشعبي الرئيسي اليهودي بالقدس الغربية . و أصبحت الاستشهادية الخامسة بعد "وفاء إدريس" من مخيم الأمعري قرب رام الله ، و الطالبة الجامعية "دارين أبو عيشة" من نابلس ، و "آيات الأخرس" ، و "إلهام الدسوقي" التي فجّرت نفسها أثناء اقتحام منزلها في جنين ، في وحدة جنود الاحتلال الذين اقتحموا المنزل .
و جاءت عملية "عندليب" في ذروة المجزرة الاحتلالية في مخيم جنين و مدينة نابلس القديمة ، حيث سقط العشرات ، دون أن يغمض للعالم جفن ، و لذلك قالت عندليب في وصيتها ، أنها قرّرت أن تفعل شيئاً لضحايا شعبها ، ما دام حكام العرب عاجزون عن فعل أي شيء .
و استشهد ظهر اليوم المواطن "عطا الله الحايك" (45 عاماً) من مدينة بيت ساحور ، بعد إطلاق النار عليه من قبل قوات الاحتلال و تركه ينزف حتى استشهاده .
و حسب شهود عيان فإن قوات الاحتلال التي كانت تدهم منازل و محلات و مكاتب المواطنين أرسلت وراء الشهيد الذي يملك بناية في وسط المدينة ليقوم بفتحها حتى يستطيع جنود الاحتلال تفتيشها و عندما خرج من منزله متوجّهاً نحو البناية تم إطلاق النار عليه و ترك ينزف حتى استشهد .
و تحدّى عددٌ من مواطني بيت ساحور حظر التجوال المفروض على المدينة و أقاموا جنازة لشهيد في كنيسة الروم الأرثوذكس ثم دفنوه في مقبرة الطائفة .
و استمرت قوات الاحتلال في مداومة المكاتب و المحلات و البيوت و تحطيم محتوياتها و سرقة بعض الأجهزة و خاصة أجهزة الحاسب .

(4/13) :

غيّرت قوات الاحتلال من لهجتها في مخاطبة المحاصرين داخل كنيسة المهد ، بعد عشرة أيام من الصمود و التحدي .

و طوال هذه الليلة فإن جنود الاحتلال عبر مكبرات الصوت حاولوا التأثير على المحاصرين بالطلب من كلّ شخص داخل الكنيسة (...) و غير متورّط بأعمال "إرهابية" الخروج من الكنيسة و سيكون في مأمن و هذا عهد (جيش الدفاع) .

و لم يتعب جنود الاحتلال طوال ساعات من تكرار مثل هذه النداءات و لكن دون أن يخرج أحد ، بعد أن قرّر المحاصرون الصمود في وجه قوات الاحتلال المحاصرة للكنيسة .

و تطلق قوات الاحتلال نيرانها على أي شيء يتحرك ، و خلال اليومين الماضيين اغتالت قوات الاحتلال المواطنين علي فرج - 60 عاماً - من مخيم الدهيشة و عطا الله الحايك - 45 عاماً - من مدينة بيت ساحور .

و قتلت الأول بأكثر من عشرين رصاصة أطلقت عليه بالقرب من مبنى جامعة القدس المفتوحة في بيت لحم بينما كان يحمل أكياس خبز لعائلته ، بينما قتل الثاني بعد استدعائه لفتح أبواب مبنى يملكه ، فتم إطلاق النار عليه ، و في الحاليتين ترك الإثنان ينزفان لساعات و دون السماح لسيارات الإسعاف بالوصول إليهما ، إلا بعد التأكد من موتهما .

و في هذا اليوم استشهد المواطن "حسن عبد الله حسن النسمان" ، بعد أن تمكّن أحد جنود الاحتلال من إصابته بكاتم صوت و هو داخل كنيسة المهد .

و "النسمان" من مخيم جباليا في قطاع غزة ، و مواليد عام 1976 ، و كان يعمل في صفوف الأمن الفلسطيني ، قبل أن يستقر في مدينة الدوحة كشخص مدني ، و لم تسمح قوات الاحتلال بنقله إلى خارج الكنيسة للعلاج ، رغم اتصالات أجراءها الصليب الأحمر مع قوات الاحتلال لإخراج الشهيد و علاجه . و ترك "النسمان" وراءه زوجة و ابنة ، و كانت زوجته أرملة شهيد استشهد قبل سنوات .

و شهد محيط كنيسة المهد تطوّرات تنذر بتصعيد محتمل في الموقف حول الكنيسة المحاصرة ، حيث أحضرت قوات الاحتلال رافعة ضخمة جداً بالقرب من الكنيسة يعتليها عددٌ من القناصة في حالة تأهب .

و أنزلت قوات الاحتلال صناديق كبيرة لم يعرف محتواها أمام باب الكنيسة الرئيسي ، في حين أطلقت منطاداً آخر في سماء المدينة ليقوم ، مع منطاد آخر أطلق قبل أيام بالنقاط صور للمحاصرين في الكنيسة و مراقبتهم .

و في هذا اليوم اجتمع رؤساء الكنائس في القدس المحتلة مع وزير خارجية أمريكا "كولن باول" و طرحوا خطة لحل أزمة الكنيسة المحاصرة ، و لكن لا يعتقد أن تستجيب حكومة الاحتلال لأي اقتراحات مهما كانت و واضح من تحركات جنود الاحتلال على الأرض أنهم بصدد اقتحام الكنيسة .

(4/14) :

اقتحمت قوة كبيرة من جيش الاحتلال مسجد مدينة بيت جالا ، و عاثت فيه فساداً ، و دُست قدسيته و داس جنود الاحتلال بأقدامهم نسخاً من القرآن الكريم و كتباً دينية أخرى ، و هذه ليست المرة الأولى التي يدنس فيها جنود الاحتلال قدسية المسجد .

و في كنيسة المهد عزّرت قوات الاحتلال لحصارها للكنيسة و يوجد المحاصرون في قاعة كنيسة القديسة كاترينا الملاصقة لكنيسة المهد لا يستطيعون الخروج منها بسبب قناصة الاحتلال على الرافعة العملاقة التي تطلّ على الرواق المؤدّي من هذه الكنيسة إلى كنيسة المهد و ملحقاتها و هذا يعني انقطاع المحاصرين عن أية خدمات حياتية أخرى .

(4/15) :

استشهدت صباح اليوم المواطنة رنا سعدي الكرجة (24 عاماً) من بلدة الدوحة خلال عملية اقتحام واسعة قام بها جيش الاحتلال للبلدة الخاضعة لحظر التجوال منذ 13 يوماً .

و استشهدت "رنا" و هي حمامية في غرفة نومها ، عندما استهدفت العمارة التي تسكنها بإطلاق النار المكثف عليها و محاصرتها و اعتقال و إصابة عدد من سكانها . و بقتل المحامية "رنا" ، فإن البنادق الصهيونية فطمت طفلها "مجد ناجي عايش" (ستة أشهر) ، و حرمت من حليب أمه بعد قتلها و إصابته بجروح .

و أمضى "مجد" ليلته في حضن خالته "هديل" مع سكان العمارة من النساء اللواتي احتجزتهن قوات الاحتلال خارجها ، و لم يكفّ "مجد" عن الصراخ مفتقداً حليب أمه الشهيدة التي نقلت إلى بلدة حلحول شمال مدينة الخليل لتوارى الثرى في مسقط رأسها ، بينما والده "ناجي عايش" بعيداً في رام الله المحاصرة حيث يعمل .

و غطى على صراخ "مجد" رصاص الاحتلال و قنابل جنوده التي كانت تطلق على العمارة السكنية ، بحجة وجود مسلحين فلسطينيين مفترضين فيها . و لم تكن الشهيدة "رنا" هي الشهيدة الأولى هذا اليوم ، فقد سبقها في ساعات الفجر استشهاد شاب آخر في بلدة العبيدية .

فعندما ركب المواطن محمد أحمد أبو محارب (29 عاماً) من منطقة التعامرة سيارته و قصد عمله قرب مدينة القدس ، و رغم أنه كان حذراً ، إلا أنه لم يتوقع أن تكون نهايته بتلك الطريقة في شارع وادي النار قبالة بلدة العبيدية .

و حسب الدكتور "محمد العبيدي" من بلدة "العبيدية" و الذي يقع منزله على شارع وادي النار الموصل إلى القدس ، فإنه سمع في نحو الساعة الرابعة و النصف فجراً إطلاق نار من قبل قوات الاحتلال و لكنه لم يعرف ما حدث بالضبط ، و في الساعة السابعة و النصف كانت قوات الاحتلال تدهم بلدة "العبيدية" و تقرض حظر التجوال عليها ، و في الوقت ذاته كان جنود من قوات الاحتلال تدهم منزل الدكتور العبيدي و تطلب منه الذهاب معهم ليتأكد من (موت) أحد (الإرهابيين) .

و قال الدكتور العبيدي : (في الطريق سألت الضابط المسؤول عما حدث فقال لي إنه أطلق النار على سيارة نقل أحد المسلحين (الإرهابيين) و يريد أن يتأكد إذا كان توفي بعد أن أصيب و ترك ينزف ثلاث ساعات) .

و عندما وصل الدكتور و جنود الاحتلال إلى السيارة التي كانت منحرفة عن مسارها و مصطدمة بجدار ، رأى الدكتور المواطن الشهيد غارقاً بدمائه و قد فارق الحياة ، و بجانبه (عدة) العمل ، فقال للجنود مشيراً إلى أدوات العمل : هل هذا هو سلاحه ؟ إنه عامل ذاهب إلى عمله ، فطلب جنود الاحتلال من الدكتور الصمت .

و قال الدكتور العبيدي إنه كان بالإمكان إنقاذ الشهيد الذي تحرك في منطقة لم تكن تخضع لحظر تجوال ، و أشار إلى أنه وجد صعوبة في نقل الشهيد إلى المستشفى .

(4/16) :

اشتعلت النيران في غرفة على الأقل في سكن الرهبان الأرثوذكس في كنيسة المهد ، خلال محاولة لاقتحام الكنيسة قامت بها قوات الاحتلال . و أطلقت قوات الاحتلال القنابل الحارقة و الصوتية و قنابل الإضاءة باتجاه الكنيسة من مختلف الجهات ، بينما استمر قصف الكنيسة بالرشاشات الثقيلة . و أصدر المحاصرون في الكنيسة بياناً أكدوا فيه إقدام سلطات الاحتلال على اعتقال أقربائهم في محاولة للتأثير على ما وصفوه بصمودهم .

و تعهدوا بالصمود و عدم الرضوخ للتهديدات و الاعتداءات الصهيونية ، و رفض اقتراح مجرم الحرب شارون رئيس حكومة الاحتلال بتخييرهم بين المحاكمة أو الإبعاد .

و شكل عرفات لجنة للتفاوض حول أزمة الكنيسة ، و علم أن حكومة الاحتلال نقلت اقتراحاتها للجانب الرسمي الفلسطيني من خلال وزير الخارجية الأمريكي الذي التقى عرفات اليوم في مدينة رام الله ، بالإضافة إلى مطالب (أمنية) احتلالية أخرى .

(4/17) :

بعد أكثر من أسبوعين على فرض الحصار المشدد على كنيسة المهد و محاصرة عشرات المواطنين و رجال الدين فيها ، يتضاءل الوصول إلى حلّ (سلمي) للأزمة ، مع إصرار قوات الاحتلال الصهيوني على مطلبها باستسلام المحاصرين و تخييرهم بين الإبعاد الأبدي أو محاكمتهم أمام المحاكم العسكرية الصهيونية . و ألغت سلطات الاحتلال اجتماعاً كان مقرراً مع أعضاء في اللجنة الفلسطينية للتفاوض حول الأزمة ، و هي لجنة لم يتمكن أعضاؤها من الإلتزام و الاجتماع حتى الآن بسبب حظر التجوال و الحصار . و كان حدّد مركز السلام ، المحتل من قبل قوات الاحتلال ، في ساحة المهد كمكان لعقد الاجتماع ، و لكن قوات الاحتلال تمارس سياستها في المراوغة و كسب الوقت لتحقيق أهدافها في النهاية . و يعتقد أن إبداء قوات الاحتلال ما يفيد بأنها على استعداد للاجتماع مع لجنة فلسطينية جزء من الأكاذيب الصهيونية لتنفيذ ما تريده و هو إجبار المحاصرين على الاستسلام . و تمارس قوات الاحتلال المحاصرة للكنيسة شتى صنوف الضغط المعنوي و المادي على المحاصرين و تراهن قوات الاحتلال على ضغط أمريكي على القيادة الرسمية الفلسطينية لإجبار المحاصرين على الاستسلام دون أن تقوم بعملية اقتحام للكنيسة مراعاة لاعتبارات دولية .

(4/21) :

أعلنت وزارة الحرب الصهيونية أسماء عددٍ ممن تعتبرهم مطلوبين لها ، و موجودين في كنيسة المهد المحاصرة منذ عشرين يوماً . و وصفت الوزارة هؤلاء أنهم متورطون في أعمال (إرهابية) ، و هم من حركة حماس و من حركة فتح و (التنظيم) حسب تعبير الوزارة و المقصود بذلك الجناح العسكري لحركة فتح .

و هؤلاء هم : إبراهيم محمد سليم عبيات ، باسم محمد حمود ، عزيز جبران و جميعهم من حركة حماس ، و كانوا مسؤولين عن إرسال استشهاديين حسب مزاعم وزارة حرب الكيان .

و من بين من ذكرتهم الوزارة أيضاً : إبراهيم عبيات أبو جلعيف ، عبد الله داود ، جهاد جعارة ، إسماعيل محمد حمدان ، نضال أبو جلعيف ، محمد سعيد عطا الله و كامل حميد ، و جميعهم من حركة فتح و جناحها العسكري .

و يأتي نشر أسماء هؤلاء مع صورهم تحت كلمة (مطلوب) و سرد لما تنته حكومة الاحتلال كلّ واحد منهم بالقيام بأعمال (إرهابية) كجزء من الحملة الإعلامية و الدبلوماسية التي تقوم بها سلطات الاحتلال لحلّ (أزمة) كنيسة المهد المحاصرة بما يوافق أهدافها .

و أعلن المحاصرون في كنيسة المهد منذ عشرين يوماً ، أنهم قرّروا و باختيارهم الجماعي أن يموتوا (شهداء و بشرف في هذا المكان المقدس ، البيت الذي انطلقت منه أنوار عيسى عليه السلام رسول المحبة و السلام ، الفدائي الأول) و ذلك حسب بيان أصدره .

و أشار البيان إلى أنه منذ فرض الحصار عليهم من قبل قوات الاحتلال ، فإن هذه القوات تحارب المحاصرين بالغذاء و الدواء و تمارس اعتداءات يومية على المحاصرين ، و دمرت مساكن كثيرة داخل الكنيسة ، و أصيب جزء كبير فيها بنيران الحرائق .

و قالوا إنهم بدأوا يدخلون في سياسة الموت البطيء التي تمارسها حكومة شارون بحقهم ، محمّلين شارون المسؤولية عن المجزرة الجماعية التي ترتكب في الكنيسة .

و أكّد المحاصرون بأنهم توكلوا على الله و اعتمدوا على إرادتهم و صمودهم و لن يسمحوا لشارون (أن يعيد صلب المسيح من جديد ، و لن يسجل في التاريخ الفلسطيني أن بيت لحم قد تخلّت عن أبنائها ، فإما النصر و إما الشهادة ، فالحق الفلسطيني أقوى من هذا الحصار ، و أقوى من القرصان و البرابرة الذين دنّسوا ساحة مهد المسيح بالخراب و الفساد و النجاسة) .

و كانت قوات الاحتلال منعت رؤساء الكنائس في القدس المحتلة من الوصول إلى بيت لحم ، حيث كان هؤلاء نظّموا مسيرة للوصول إلى بيت لحم و للمحاصرين في كنيسة المهد .

و قال البطريرك ميشيل صباح ، و هو أرفع مسؤول ديني فلسطيني مسيحي في الأراضي المقدسة ، إنه و رؤساء الكنائس أقاموا صلوات خاصة على الحاجز العسكري الفاصل بين القدس و بيت لحم تحدياً لإجراء الاحتلال بعدم تمكينهم من الوصول إلى مدينة المهد ، و أنهم سيصلون للكنيسة قريباً رغم أية تدابير احتلالية .

(4/22) :

فشلت محاولة احتلالية لاقتحام كنيسة المهد ، مساء اليوم ، و أسفرت عن حريق شب في إحدى الغرف . و وفق شهود عيان ، فإن قوات الاحتلال التي تحاصر الكنيسة بدأت بإطلاق نار مكثف على الكنيسة و كذلك إطلاق قذائف و قنابل صوتية مما أدى إلى اشتعال النيران في غرفة منامة للراهبان في الطابق العلوي الملحق بالكنيسة .

و قال المتحدث باسم المحاصرين ، إن محاولة اقتحام الكنيسة لن يؤثر على معنويات المحاصرين ، و أنهم مستعدون لأي طارئ و سوف يقاومون ، رافضاً العرض الصهيوني بالمحاكمة أو الإبعاد عن أرض الوطن .

(4/23) :

فتحت قوات الاحتلال نيران بنادقها على المواطنين الذين خرجوا إلى شارع المدبسة في المدينة بعد إعلان هذه القوات عن رفع حظر التجوال لمدة ساعتين ، فأصيب بعضهم بجروح ، و تعرض آخرون لمطاردة جيش الاحتلال .

و كان حظ هؤلاء المواطنين أحسن من حظ الفتى أمين ثوابته - 16 عاماً - من قرية بيت فجار ، الذي أصيب برصاص قناص احتلالي في بطنه ففارق الحياة شهيداً و شاهداً على همجية المحتلين .

و بدا منظر شوارع بيت لحم مخيفاً ، فالمحلات التجارية مغلقة الأبواب و البنى التحتية مدمرة و سوق الخضار القديم الذي رمم ضمن مشروع بيت لحم ألفين ، أصابه دمارٌ كبيرٌ بالإضافة إلى وجود عشرات من السيارات كانت جمعت في السوق و تم إحراقها .

و لم يسمح لأحد بالاقتراب من ساحة و كنيسة المهد ، و كان عقد اجتماع بين وفد فلسطيني و آخر صهيوني في مركز السلام في المدينة لبحث أزمة كنيسة المهد ، و لم يسفر الاجتماع عن شيء .

و رفض الجانب الفلسطيني الاقتراح الاحتلالي بمحاكمة ما يعتبرهم مطلوبين له أمام المحاكم الاحتلالية أو نفيهم إلى خارج الوطن . و قدّم الجانب الفلسطيني اقتراحاً بنقل المطلوبين إلى قطاع غزة .

(4/24) :

أصيب مواطنان بجراح أثناء محاولة سلطات الاحتلال اقتحام كنيسة المهد ، و نقلوا إلى إحدى المستشفيات الصهيونية ، و بعد ساعات أعلن عن استشهاد المقاوم عصام جوابرة - 21 عاماً - ليصبح الشهيد الثالث الذي يستشهد داخل الكنيسة خلال الحصار .

و اتهمت مصادر فلسطينية سلطات الاحتلال باغتيال جوابرة ، بعد نقله مخفوراً و هو جريح إلى أحد المستشفيات الصهيونية خصوصاً و أنه كان من المطلوبين لقوات الاحتلال لدوره في المقاومة .

(4/25) :

اعترفت مصادر جيش الاحتلال بقيام جنوده بسرقة و نهب ممتلكات لمواطنين في المحافظة ، و إن كانت اعتبرت هذه المصادر ، و كما هو متوقع أن ذلك يعتبر حوادث شاذة و فردية حسب تعبيرها .

و تستمر حملات السرقة و النهب التي يقوم بها جنود الاحتلال و تشمل أموالاً و خصوصاً من المعتقلين و أدوات و أجهزة كهربائية و إلكترونية كالحواسيب و ماكينات التصوير و غير ذلك .

و انتهى الاجتماع الذي عقد مساء اليوم بين الوفد الفلسطيني و الوفد الصهيوني لبحث أزمة كنيسة المهد ، بدون اتفاق بين الجانبين .

و علم أن الوفد الفلسطيني طرح من جديد اقتراحاً يقضي بإبعاد ما تعتبرهم قوات الاحتلال مطلوبين لها إلى قطاع غزة ، و طلب السماح له بالالتقاء بالرئيس عرفات في رام الله .

(4/26) :

استشهد الجريح الآخر في أحد المستشفيات الصهيونية و هو رائد الخطيب ، و اتهمت حركة فتح الكيان الصهيوني بتصفية الخطيب مثلما أعدمته الشهيد عصام الجوابرة .
و قال بيان للحركة إنه اتضح من خلال المفاوضات التي جرت في الأيام الماضية أن هذه المفاوضات مجرد لعبة احتلالية هدفها إلقاء القبض على أكبر عددٍ من المحاصرين و استجوابهم و من أجل امتصاص الغضب العالمي إضافة إلى تفريغ الكنيسة و الاستفراد بالمقاتلين و قتلهم سواء بالإرهاك النفسي أو التجويع أو اصطيداهم عبر القناصة حول الكنيسة .
و عبّرت مصادر محلية عن قلقها على حياة ثلاثة من المواطنين أصيبوا بجراح أثناء وجودهم في الكنيسة المحاصرة ، و نقلتهم قوات الاحتلال إلى أحد المستشفيات الصهيونية للعلاج .
و الثلاثة هم : باسم أبو العدس ، رأفت العبيات و رامي الخطيب .

(4/28) :

دعا نادي الأسير الفلسطيني إلى الكشف عن مصير 300 جريح و مريض فلسطيني اعتقلوا على يد سلطات الاحتلال منذ إعادة احتلال المناطق الفلسطينية في 2002/3/29 .
و من بين الأسرى المرضى و الجرحى أورد نادي أسماء هؤلاء :

- معتصم سعود عيد أبو عمر ، و هو جريح اختطف من مستوصف الروم في بيت ساحور .
- رامي حسن الخطيب : أصيب في كنيسة المهد بجروح خطيرة .
- باسم محمد إبراهيم حمود : أصيب داخل كنيسة المهد .
- سامر سلامة محمود كوازية : أصيب داخل كنيسة المهد .
- ثائر محمد عبد الله مناصرة : أصيب داخل كنيسة المهد .
- جميل محمد علي التتح : اعتقل و هو جريح مريض .
- إبراهيم عمر أحمد سعادة : معاق في قدميه .
- خليل محمد خليل صلاح : مريض جداً .
- مصطفى عبد السلام عبيات : مريض و أجريت له عملية جراحية في بطنه .
- حسن محمد الوردان : يعاني من عدة أمراض .

و لم تشهد كنيسة المهد ، احتفالها بأحد الشعانين وفق التقويم الشرقي ، للمرة الأولى منذ القرن الرابع الميلادي ، حيث يعود تاريخ الكنيسة التي بنيت على ما يعتقد أنه المكان الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام .
و احتفل رجال الدين المحاصرون في الكنيسة بإقامة قدّاس احتفالي بالمناسبة شارك فيه المحاصرون من المواطنين المسلمين و المسيحيين .
و منعت مسيرة بمناسبة أحد الشعانين انطلقت من القدس المحتلة شارك فيها شخصيات دينية و وطنية إسلامية و مسيحية و أعضاء كنيسة عرب ، من الدخول إلى بيت لحم .
و تظاهر المشاركون بالقرب من الحاجز العسكري الصهيوني الفاصل بين مدينتي بيت لحم و القدس ، مطالبين برفع الحصار عن كنيسة المهد ..
و لم يسفر اجتماع بين الوفد المفاوض الفلسطيني و الصهيوني عقد عصر أمس ، استمر نحو خمس ساعات عن نتائج ملموسة ، و طالب فيه المفاوضون الفلسطينيون السماح بإدخال الطعام و الأدوية إلى المحاصرين داخل الكنيسة .

و جدد المحاصرون ، رفضهم للشروط الاحتلالية ، و طالبوا في بيانهم الثالث بانسحاب قوات الاحتلال التي تطوق الكنيسة ، و أعلنوا رفضهم لتحويل المفاوضات الجارية بين وفد فلسطيني و آخر صهيوني حول أزمة الكنسية إلى ما أسموه بالكمين . و أعلنوا أنهم يخوضون صمودهم تحت عنوان : نعم للجوع و لا للركوع .

(4/29) :

استشهد نضال إسماعيل عويضة العبيات ، من كتائب شهداء الأقصى ، و أحد المطلوبين الرئيسيين لسلطات الاحتلال برصاصة قناص احتلالي بعد أن ظهر على تلسكوب رشاش القناص .

و الشهيد نضال هو الشهيد السادس الذي يسقط في داخل الكنيسة منذ حصارها ، و أمضى الشهيد نضال بعد دفنه ، ليلته الأولى في أكثر مكان كان يأمل أن يكون فيه ، بجانب أصدقاء و أخوة و رفاق طفولة سبقوه إلى الشهادة بعد أن قطعوا مع المسافة سريعاً .

و كان يعرف ذلك والده الذي وقف يتقبل التهاني باستشهاد ابنه بعد مواراته الثرى في مقبرة الشهيد حسين عبيات التي تضم في ثراها رفاق نضال الذين سبقوه .

و قال والده إن هذا اليوم : يوم استشهاد ابنه هو أجمل الأيام لديه ، و أن ابنه نضال حضر إليه في رؤية صادقة قبل استشهاد و ودّعه .

و اكتسب الشهيد نضال محبة الكثير من المواطنين لهدوئه و قلة كلامه و كثرة أفعاله ، و كان يطلق عليه تحبباً شيخ كتائب شهداء الأقصى ، و حين استشهاد اليوم برصاصة قناص صهيوني لاقى وجه ربه صائماً فهو تعود صيام يومي الإثنين و الخميس منذ طفولته .

قبل سنوات كان نضال يعمل خبازاً و كان يخرج في فجر كل يوم يوزع الخبز في شوارع مدن و قرى و بلدات المحافظة .

و في الأشهر الأولى لانتفاضة الأقصى وجد نفسه مع صديقه حسين عبيات قائد كتائب شهداء الأقصى ، و أصدقائه الآخرين ، يخوضون معركة جديدة و غير مسبقة ضد المحتلين و فتحوا ما عرف بـ "جبلو" و هي مستوطنة صهيونية تقع جنوب القدس ، و أقيمت على أراضي مدينة بيت جالا بعد احتلال ما تبقى من الأراضي الفلسطينية عام 1967م .

و بعد نحو أربعين يوماً من انتفاضة الأقصى كانت حافلة بالمعارك التي كان بطلها حسين عبيات ، اغتالت سلطات الاحتلال الشهيد حسين بقصف سيارته بالصواريخ في مدينة بيت ساحور فاستشهد و معه امرأتان ، و كان اغتياله أول اغتيال في انتفاضة الأقصى ، و بداية لسلسلة الاغتيالات الدموية التي مارسها حكومتها مجرمي الحرب باراك و شارون ، و لم تنته بعد .

و خلال أشهر انتفاضة الأقصى الطويلة كان شيخ الكتائب الهادي ممسكاً ببندقيته و هو يرى الكثير من أصدقائه الذين سقطوا في المعارك مع الاحتلال أو اغتيلوا من كتائب شهداء الأقصى أو من كتائب عز الدين القسام .

و نسب جيش الاحتلال للشهيد نضال و رفاقه التخطيط لقتل ضابط استخبارات صهيوني هو يهودا إدري في عملية اختراق جريئة لجهاز الشاباك الصهيوني ، و عمليات قتل فيها عدد من المستوطنين و جنود صهيانية . و عشية استشهاد كان قرر و رفاقه الصمود و رفض المقترحات الفلسطينية الرسمية و المقترحات الصهيونية ، و خوض معركتهم ضد الاحتلال تحت عنوان : نعم للجوع و لا للركوع .

(4/30) :

اعتقلت قوات الاحتلال نحو 29 مواطناً خرجوا اليوم من كنيسة المهدي و نقلتهم إلى معسكر عتصيون الاستيطاني للتحقيق معهم . و رفضت سلطات الاحتلال مطالب فلسطينية رسمية بأن يتم خروج هؤلاء إلى منازلهم دون التحقيق معهم . و تعتمد سلطات الاحتلال ، إلى استخدام كافة السبل التي تراها مناسبة لتحقيق أهدافها من حصارها للكنيسة .

و فرضت هذه القوات شروطها بإخراج عددٍ ممن تسميهم بالمدنيين من الكنيسة مقابل إدخال الطعام للمحاصرين ، و عندما خرج نحو 29 مواطناً اعتقلتهم قوات الاحتلال و نقلتهم إلى معسكر عتصيون الاستيطاني ، دون أن تفي بالتزامها ، كما هو متوقع بإدخال الطعام للمحاصرين .

و في هذه الأثناء داهمت قوات الاحتلال بلدة الدوحة و اقتحمت منزل الشهيد عصام الجوابرة الذي كان استشهد متأثراً بجراح أصيب بها داخل كنيسة المهد من قبل قناصة الاحتلال .

و أصدرت حركة فتح في بلدة الدوحة المحاصرة بياناً عاهدت فيه الشهيد عصام و جميع الشهداء ، على الاستمرار في (الانتفاضة حتى النصر أو النصر ، فالمقاومة لن تموت و سيكون الموت للمحتل فلن ينتصر حق القوة على قوة الحق و الدم الفلسطيني) حسب البيان .

(5/1) :

لم يكن رفع حظر التجوال الجزئي الذي يرفع كلّ بضعة أيام ، و ينتظره كثير من المواطنين ، بالنسبة للإخوة الثلاثة من قرية أرطاس : عبد خالد محمد إسماعيل (9 سنوات) و نور (14 عاماً) و نضال (12 سنة) .

فمع الإعلان عن رفع حظر التجوال الساعة الثانية خرج هؤلاء و لم يكن يعرفون ماذا ينتظرهم بالقرب من مبنى الشرطة الفلسطينية في الطريق المؤدية إلى قرية أرطاس و مخيم الدهيشة .

و حسب شهود عيان فإن لغماً تركه جنود الاحتلال الذين يسيطرون على تلك المنطقة سيطرة كاملة انفجر و أدى إلى استشهاد : عبد ، و إصابة الإثنين الآخرين : نور الذي قطعت رجلاه و نضال الذي أصيب إصابة وصفت بالخطيرة .

و كلّ ذلك مع استمرار أزمة الكنيسة ، و لا يتوقع أن يؤدي وصول الكاردينال روجيه ممثلًا للحبر الأعظم البابا يوحنا بولس الثاني ، لبحث الأزمة مع المسؤولين الصهاينة ، إلى حلّ أو حتى انفراج ، و يعود هذا (التشاؤم) لدى المراقبين المحليين بسبب إصرار قوات الاحتلال على تنفيذ هدفها المعلن باعتقال ما تعتبرهم مطلوبين لها أو نفيهم ، و غير المعلن اعتقالهم أو إعدامهم ، و شرعت قوات الاحتلال منذ حصارها بتنفيذ هدفها : الاعتقال أو الإعدام أو كليهما معاً ، فقامت قوات الاحتلال التي تفرض حصاراً مشدداً على الكنيسة و تراقب بمساعدة منطادين يحلقان فوق الكنيسة ، بقتل ستة من المحاصرين و جرح آخرين .

(5/2) :

استشهد ظهر اليوم الشاب محمد أبو عابد - 20 عاماً - بعد إطلاق النار المكثف على كنيسة المهد المحاصرة . و أصيب أيضاً اثنان من المحاصرين اعتقلتهم قوات الاحتلال و نقلتهم إلى أحد المستشفيات الصهيونية و أحد هؤلاء وصفت جراحه بأنها خطيرة .

و كان أربعة من المحاصرين أصيبوا بعد منتصف ليلة أمس نتيجة محاولة فاشلة لقوات الاحتلال لاقتحام الكنيسة مما أدى إلى نشوب حريق في أحد غرف دير الروم الأرثوذكس الملحق بالكنيسة .

و الشهيد أبو عابد هو الشهيد السابع الذي يسقط نتيجة حصار الكنيسة و إطلاق النار المستمر من قبل الاحتلال على المحاصرين . و خلال فترة حصار الكنيسة أصيب أيضاً 27 جريحاً برصاص قناصة الاحتلال و بسبب الحرائق .

و رفضت حكومة الاحتلال السماح للمبعوث البابوي الذي يزور فلسطين بزيارة الكنيسة و تمسك المحتلون بشروطهم و هي اعتقال المحاصرين و تقديم من يريدون منهم إلى المحاكم الاحتلالية .

و اعتقلت قوات الاحتلال نحو عشرة من متضامنين أجانب حاولوا الدخول إلى الكنيسة بعد تحدي الحصار ، بينما تمكن آخرون من الدخول فعلاً إلى الكنيسة .

(5/4) :

بينما كانت سلطات الاحتلال تراوغ عن طريق المفاوضات المحلية في بيت لحم و الأخرى (السرية) مع مستشار عرفات محمد رشيد ، استمرت في تصيّد المحاصرين و قتلهم ، و اليوم قتلت خلف ناجرة - 40 عاماً - و هو من قرية نحالين ، بعد إصابته و نقله إلى أحد المستشفيات الصهيونية بالقدس الغربية و من ثم أعلنت وفاته هناك. و هو الشهيد الثالث ، الذي يقضي إعداماً ، على الأرجح ، من قبل قوات الاحتلال بعد نقله إلى المستشفيات الصهيونية .

و باستشهاد ناجرة يرتفع عدد الشهداء الذين سقطوا خلال حصار الكنيسة إلى ثمانية ، و كان خلف زميل دراسة لي و آخر مرة التقيت به كان في منزلي قبل حصار الكنيسة بشهر .

(5/5) :

أبدت مصادر محلية خشيتها من إقدام الرئيس عرفات على عقد صفقة لحلّ أزمة كنيسة المهد على غرار ما حدث في مبنى المقاطعة في رام الله ، حين وافق على وضع أمين عام الجبهة الشعبية و رفاقه في سجن تحت حراسة أجنبية ، مقابل فك الحصار عن مقره .

و ترايدت هذه المخاوف لدى هذه المصادر بعد أن تأكد عودة عرفات إلى الأسلوب الأثير إليه و هو المفاوضات السرية أو فتح أكثر من قناة ، و هو الأمر الذي كانت أشارت إليه المصادر الصهيونية سابقاً ، و تأكد من مصادر فلسطينية . و علم أن المكلف بإجراء هذه المفاوضات كلّ من : مستشار عرفات محمد رشيد و المسؤول الأمني محمد دحلان و الوزير نبيل قسيس .

و رغم مثل هذه المفاوضات (السرية) التي تجري بقيادة رشيد في تل أبيب و القدس الغربية فإن الحصار ما زال مستحكما حول الكنيسة ، و القتل مستمر .

(5/6) :

بدأت قوات الاحتلال حملة اعتقالات جديدة في المحافظة ، بعد تسلمها قائمة بأسماء الموجودين في كنيسة المهد . و وقرت القائمة التي سلّمت لسلطات الاحتلال بعد أن رفعها محافظ بيت لحم الموجود في داخل الكنيسة إلى مكتب عرفات ، الذي كان أوعز بمفاوضات سرية حول أزمة الكنيسة ، معلومات جديدة لسلطات الاحتلال و صحّحت معلومات استخبارية مغلوطة ، على ما يبدو ، كانت لديها ، و مكنتهم من اعتقال مطلوبين كانت تعتقد أنهم داخل الكنيسة و لكنهم كانوا خارجها .

و مارست سلطات الاحتلال أقصى عمليات الابتزاز في اتفاقها مع السلطة الفلسطينية لحلّ أزمة كنيسة المهد ، رغم أن ملامح الاتفاق لم تتضح بعد و لم تبلغ حتى للموجودين داخل الكنيسة المحاصرة و الذي اتضح من الاتفاق حتى الآن إبعاد 13 من الموجودين داخل الكنيسة إلى الخارج و بدون أن يصطحبوا عائلاتهم و لن يسمح لعائلاتهم بتوديعهم .

و الذين سيتم إبعادهم إلى إيطاليا هم : أحمد حمامرة ، ممدوح الوردان محمد سعيد عطا الله ، عزيز عبيات ، عنان خميس ، خليل نواورة ، رامي الكامل ، جهاد جعارة ، خالد أبو نجمة ، إبراهيم محمد سالم عبيات ، عبد الله دواد ، إبراهيم موسى عبيات .

و سيتمّ ترحيل 26 من الموجودين داخل الكنيسة إلى قطاع غزة ليس بينهم واحد من أبناء قطاع غزة .

(5/7) :

في ساعات الفجر الأولى فوجئ المحاصرون في الكنيسة المهد منذ 36 يوماً ، بدخول العميد ربحي عرفات مسؤول الارتباط العسكري في الضفة الغربية ، و العقيد فاروق أمين مسؤول الارتباط العسكري في محافظة بيت لحم . و كانت هذه الزيارة المفاجأة تحمل أولى بوادر الحل لأزمة الكنيسة .

عرض العميد عرفات على الموجودين أسماء 13 شخصاً منهم تم الاتفاق على ترحيلهم إلى الخارج ضمن الاتفاق بين الكيان و السلطة الفلسطينية ، و في حالة موافقة هؤلاء على الترحيل ، سنقدّم سلطات الاحتلال القائمة الأخرى و التي تشمل 26 اسماً سيتمّ ترحيلهم إلى قطاع غزة .

و وفقاً لمصادر المحاصرين داخل الكنيسة فإنه أجريت مشاورات تم خلالها الموافقة على الترحيل إلى الخارج ، دون أن يتضح أي معلومات أخرى عن الاتفاق .

و خرج العميد عرفات و العقيد أمين إلى مركز السلام قبالة الكنيسة الذي اتخذته المحتلون مقراً لهم ، و نقل موافقة المنوي ترحيلهم ، فتسلم القائمة الأخرى بأسماء الذين يتم ترحيلهم إلى غزة ، و عندما عرضت على المحاصرين كانت المفاجأة ، فهذه القائمة تخلو من أبناء قطاع غزة من أفراد الأمن الفلسطيني و الذين كانوا يتمنون أن يرحلوا إلى غزة لأنهم لم يشاهدوا أهلهم و عائلاتهم منذ سنتين على الأقل .

و في أحد أوجه تنفيذ الاتفاق هناك مآسي إنسانية ، فمثلاً إبراهيم محمد سالم عبيات سيتم ترحيله إلى الخارج بينما شقيقه ناجي فسيتم ترحيله إلى غزة ، و كان شقيقهما الثالث حسين عبيات قد استشهد اغتيالاً .

و سيتم ترحيل زيد عطا الله إلى غزة و هو شقيق الشهيد جاد عطا الله الذي اغتيل قبل شهرين في مخيم الدهيشة و سيتم ترحيل ابن عهما محمد إلى الخارج .

و بعيداً خارج الكنيسة ، في بلدة تقوع شرق بيت لحم ، اعتقلت سلطات الاحتلال أحد أبرز المطلوبين لها و هو رياض العمور من كتائب شهداء الأقصى ، و يعتقد أن اعتقال العمور و غيره خلال اليومين الماضيين جاء بعد تسلم سلطات الاحتلال قائمة بأسماء الموجودين داخل الكنيسة .

و طالبت حركة فتح في إقليم الضفة الغربية الرئيس عرفات عدم المصادقة على ما أسمته صفقة ، مؤكدة على أنه يجب محاكمة مجرمي الحرب الصهاينة على ما اقترفوه من جرائم بحق شعبنا الفلسطيني و وقف مخطط إبعاد مناضلين و الأبطال إلى خارج الوطن .

و حملت حركة فتح المسؤولية لكل من ساهم فيما أسمته بالجريمة الإنسانية الخطيرة و طالبت بمحاسبتهم و عدم السماح لهم باستمرار التلاعب بمصير أبنائنا و كوادرنا .

و قالت فتح في بيان لها عن ما وصف بأنه اتفاق لإنهاء أزمة كنيسة المهد إنه (صفقة تمنح الشرعية و القانونية لمنطق الاحتلال في سياسة الإبعاد و النفي القصري مما يتناقض مع كل المواثيق و الأعراف و القوانين الدولية و الإنسانية و مع كل الاتفاقيات التي وقعت مع الجانب (الإسرائيلي) .. إنها صفقة جاءت بعد أن استشهد ثمانية مناضلين داخل الكنيسة و جرح 30 مواطناً و بعد احتلال و حصار إرهابي على محافظة بيت لحم استمر 35 يوماً مورس خلاله كل أشكال القمع و التدمير لكافة مظاهر الحياة) .

(5/10) :

وسط تباين في الآراء حول الاتفاق بين السلطة الفلسطينية و حكومة الاحتلال لحل أزمة كنيسة المهد ، نقذ ما يمكن اعتباره بعض بنود الاتفاق المعروفة و العلنية .

و بُدئ بتنفيذ ذلك مع ساعات الصباح الأولى ، بعد اجتماعات أمنية فلسطينية صهيونية مكثفة استمرت طوال ساعات الليل للاتفاق على الأمور الفنية لتنفيذ الاتفاق و على قضايا كانت عالقة و لم تحسمها المفاوضات بين الجانبين ، و التي كان أبرزها ما يتعلق بأسلحة المحاصرين منذ 38 يوماً و إبقاء مندوب أمريكي مع 13 من المحاصرين كان مقرراً بقاؤهم في الكنيسة حتى يتم إبعادهم إلى الخارج .

و في نحو الساعة السادسة و النصف كان كل شيء جاهزاً بين الجانبين للبدء بتنفيذ الاتفاق في أحد صباحات مدينة المهد التي حجبت الغيوم عن سمائها شروق الشمس .

و كان الاتفاق الجديد على أن يتم خروج المحاصرين الثلاثة عشر و الذين من المقرر إبعادهم إلى الخارج ، و هم ما جرى بالفعل بخروج كل منهم فرادى و بدون أسلحتهم يرافق الواحد منهم الأب إبراهيم فلتس راعي طائفة اللاتين في بيت لحم ، و يمر كل منهم عبر جهاز فحص المعادن ، و حرص كل واحد منهم على التلويح للبعض من أهاليهم الذين كسروا حظر التجوال و وصلوا إلى مشارف الكنيسة .

و كان الموقف مؤثراً جداً بالنسبة لأهالي المعتقلين الذين هتفوا ضد الاتفاق وسط الدموع المناسبة من أعينهم ، و كأنهم لا يصدقون أن هذه المرة الأخيرة التي سيشاهدون أبناءهم و حتى بدون وضوح . و صرخ بعضهم بهتافات الله أكبر .. الله أكبر .

و تم تجميع المواطنين الثلاثة عشر في حافلة كانت تنتظرهم ، و انطلقت بهم إلى معسكر عتصيون الاستيطاني حيث تم التحقق من شخصياتهم .
و نقل هؤلاء بواسطة طائرة بريطانية إلى جزيرة قبرص ، و علم من مصادر فلسطينية أنه لم يتحدّد بعد الجهات التي سيتوجّهون إليها أو وضعهم في الدول التي ستستقبلهم .
و ما إن انتهى إخراج المحاصرين حتى تقدّم المسؤولون الدينيون للطوائف المختلفة للدخول إلى الكنيسة ، و لكن تم منعهم من ذلك من قبل قوات الاحتلال .
و رفض نحو عشرة من المتضامنين الأجانب كانوا دخلوا إلى الكنيسة في وقت سابق من أيام الحصار ، الخروج إلا وفق ترتيبات تضمن سلامتهم و عدم استجوابهم .

(5/11) :

كان المنظر أمام كنيسة المهد ، في اليوم الأول لرفع الحصار الاحتلالي عنها ، هو المشهد الذي طالما تمناه سكان المدينة ، عندما متوا أنفسهم أن تكون الذكرى الألفية لميلاد المسيح عليه السلام ، مناسبة لقيام الملايين من المؤمنين في العالم بزيارة مدينتهم .
و ما لم يحدث بمناسبة الألفية حدث في اليوم الأول من رفع الحصار و من سكان المحافظة أنفسهم ، الذين احتشدوا بالمئات أمام باب الكنيسة التي تصدرت نشرات أخبار العالم خلال الأربعين يوماً الماضية .
و تزامم هؤلاء للدخول إلى الكنيسة لرؤية ما أحدثه الحصار و ليقفوا على آثار أعزائهم الذين تشبّثوا في أربعة أركان المعمورة بعد أن كانوا و حتى قبل أيام شاغلين الناس في العالم ، و قبلها كانوا جزءاً من المشهد الانتقاضي في بيت لحم و مدنها و مخيماتها و بلداتها .
و لكن معظم هؤلاء المتراحمين للدخول إلى الكنيسة لم يتمكنوا من ذلك بسبب إغلاق أبواب الكنيسة من قبل رهبانها لإحداث التصليحات اللازمة و المناسبة بعد أيام الحصار و التدمير الطويلة .
و بدت مدينة بيت لحم ، و بشكل غير معهود تعجّ بالمواطنين الذي جاءوا لتفقد الشوارع و المحلات و البيوت و الساحات و ربما الأهم تفقد أنفسهم ، فالجميع يسلم على الجميع و يقول له : الحمد لله على السلامة .
و بدت مناظر الدمار كبيرة بالنسبة للكثيرين و فوق القدرة على الاستيعاب أحياناً خاصة بالنسبة لأماكن ارتبطت بذاكرة المدينة و أصبحت منذ زمن بعيد جزءاً من كينونتها و تاريخها و صباحاتها و مساءاتها اليومية ، مثل سوق الخضار القديم في البلدة القديمة و الذي رَمّم من قبل الجهات المانحة .
و لم يعرف الكثير من المواطنين أن ما رأوه هو فعلاً هو سوقهم ، فالتدمير به مفعج فعلاً و في أحد أقسامه ارتكبت سلطات الاحتلال (مجزرة) للسيارات حيث جمعت العشرات منها في السوق و أحرقتها مما أدّى أيضاً إلى احتراق المحلات التجارية و بسطات الخضار و غيرها من محلات .
و بدت آثار العدوان في الشوارع من هياكل السيارات التي فجّرتها قوات الاحتلال أو تلك التي حطمتها جرافات المحتلين ، و على المحلات المخلة الأبواب من آثار الرصاص و التفجير و على الأبواب و الشبابيك و المنازل و المؤسسات العامة التي استبيحت من قبل قوات الاحتلال . و التخريب واضح للعيان في الساحات و الميادين ، فكلّ ما يمكن إدراجه تحت مسمى البنية التحتية كان هدفاً للتدمير الاحتلالي .
و رغم هذا التدمير فإن التدمير الأكبر بالنسبة للمواطنين هو ما حدث بالنسبة لما يمكن تسميته الإدارة السياسية لأزمة الكنيسة و التي بدأت بإخفاقات و تنازلات ، و أبرزها الاستجابة لطلب قوات الاحتلال بتسليم قائمة بأسماء الموجودين داخل الكنيسة و التي كان لها آثار واضحة في تصويب معلومات استخبارية لدى المحتلين .
و في الوقت الذي كان الوفد الرسمي يقمّ فيه هذه التنازلات كان المحتلون يستغلون الفرص لقتل المزيد من المحاصرين و جرح آخرين .
و في حين بدا أهالي الشهداء أكثر المواطنين تأثراً على فقدانهم لأبنائهم ، فإن الحديث بين المواطنين كان حول الخشية من أن تنسى القيادة السياسية و بسرعة ما يسمونه شلال الدماء الذي نزل في كنيسة المهد و شوارع المدينة .
الكثيرون ممن قابلتهم قالوا : (المال يتعوّض .. المهم الوفاء لدماء الشهداء) .

و تسأل بعضهم : (هل فعلاً ستجرؤ القيادة الرسمية على نسيان دماء أبنائنا ؟ إذا حدث ذلك فهو الكارثة) .

(9)

كانت الأيام أنضجت أبو سمير بأكثر مما توقعت ، و كان تأثير ما فعلته آيات طاغياً عليه ، فهي لم تكن فقط ابنته بل أيضاً صديقه ، و هو أمر يشعر بأنه ميزة له في أجواء (الأبوة) الشرقية التي تكون في أحيان كثيرة : أبوة قاهرة ، سواء كانت أبوة بيولوجية أو اجتماعية أو قبلية أو حتى حزبية .. !

و أبو سمير هو واحد من جيل فلسطيني نشأ في المخيمات ، يمكن تسميته بجيل النكبة ، فهو الذي وجد نفسه في سنواته الأولى في المخيمات أو ولد فيها ، و كان حلقة الانقطاع (.. و الاتصال) بين الجيل القديم الذي وثق بالدول العربية و وعود الدول الكبرى و حاول أن يقدم ما يستطيع في المقاومة و لكنه فشل .. انهزم و رأى أرضه تضيع أمامه .

و كان على جيل أبو سمير أن يكون مختلفاً : أرض ضاعت و وطن تبخر ، و المسؤوليات الحياتية كبيرة ، فعمل من أجل الوطن و من أجل العائلة ، و ربما سيسجل لهذا الجيل دوره الكبير في الحفاظ على العائلة الفلسطينية بالاستمرار ليس فقط أن يعيش أفرادها على قيد الحياة بل أيضاً استمرارها كعائلة .

كان أبو سمير من جيل من الإخوة الكبار لملايين من الأفراد الفلسطينيين الذين تعلموا و صلب عودهم و فجرُوا عدة ثورات . و بعض أفراد هذا الجيل ورث قسوة الجيل السابق (الأبوية) و آخرون ، بحكم مسؤولياتهم الجديدة عن مصير الإخوة مارسوا الحزم على أشده ، و البعض عندما بنى عائلات جديدة مثل أبو سمير ، كان متأثراً برياح التقدم و الثورات الاجتماعية و التكنولوجية و الإعلامية التي عصفت بالقرن الماضي ، و إن جاء هذا الوعي ، في أغلبه ، عفوية و بقوة حقائق الحياة و العصر .

و كان أبو سمير من جيل طينته مزيج من الألم و الدموع على ضياع ما ضاع (بطرفة عين) و من الأمل الغلاب المعمد بالدم و مزيج من تقاليد الفلاحين الفلسطينيين الذين أصبحوا ، فجأة ، عمالة زائدة على مشارف المدن في الوطن و الشتات ، و من المعاصرة التي تدخل من تحت الخيام أو من أبواب منازل الصفيح بدون كثير استئذان .

و كان أباً و صديقاً لآيات و شقيقاتها و حريصاً على تعليم البنات أكثر من الأولاد ، لتكون (الشهادة سلاحاً) في يد البنت .. !

و في التاسع والعشرين من آذار (2002) ، كان أبو سمير الذي تابع خلال الأشهر و الأيام الماضية العمليات الاستشهادية على شاشات التلفزة ، على موعد مع عملية استشهادية من نوع آخر .. و طعم آخر .. و لون آخر .. و شكل آخر .. و كل شيء آخر في العالم .. !

من حيث التوقيت ، كانت قوات الاحتلال بدأت عملية احتلال واسعة لمدينة رام الله ، و فرضت طوقاً على مقر عرفات الذي بدأ يكسب تعاطفاً جماهيرياً كبيراً ، و لم يكن أحد مستعداً من العالم العربي الرسمي أن يفعل شيئاً أو حتى يقول كلمة .

و كان مجرم الحرب شارون في أعلى حالات نشوته و يعد الصهاينة بأنه سيقضي على (الإرهاب) ، و بسبب الوضع الأمني المعقد حول المدن الفلسطينية و الاستنفار الأمني في القدس المحتلة ، حيث كان هناك أكثر من عشرة آلاف شرطي و جندي مهمته منع أي استشهادي ، فكان التشوق لعملية استشهادية في أوساط الرأي العام الفلسطيني وصل ذراه .

و عندما أعلن عن تلك العملية في حيّ كريات أوفيل الاستيطاني بالقدس الغربية ، كان أبو سمير واحداً من ملايين يتابعون تلك (المفاجأة) التي جاءت (في وقتها) .. تماماً .. !

و بعد قليل كان هذا الواحد من الملايين هو مركز الحدث ، فالتى قامت بتنفيذ تلك العملية هي ابنته ... : آيات .. محمد لطفي الأخرس .. ، ابنته ... ابنة مخيم الدهيشة .. ابنة فلسطين .. ابنة العرب .. ابنة أحرار العالم ! آيات الأخرس .. !

و لم يبقَ من وقع المفاجأة حتى كانت دبابات الغزاة تدخل و تقتل و تدمر ، و تقف على بابا كنيسة المهد ، حيث كان ابنا أبو سمير من بين المحاصرين ، و لجأ إلى هناك خشية من البطش الصهيوني ، و كان على أبو سمير نفسه أن يغادر المنزل ، لأن المنزل الذي خرجت منه الاستشهادية آيات كان مستهدفاً من قبل القوات الغازية .

و عندما عاد إلى المنزل ، بعد كل تلك المعاناة ، ليلتقط أنفاسه ، وجد في انتظاره مفاجأة كبيرة : آيات جديدة .

(10)

و كان أبو سمير فرحاً بأبوتّه الجديدة لآيات الصغيرة ، التي أعادت آيات الأخرس الكبيرة ، إلى الحياة ، بعد أقلّ من أربعين يوم على استشهادها . و عادت آيات الأخرس بميلاد الطفلة الصغيرة آيات ، التي أسمتها والدتها على اسم الاستشهادية آيات تيمناً بها .

و آيات الجديدة هي ابنة الشهيد ناهض الجوجو ، الذي استشهد في شهر تشرين أول عام 2001 ، و هو يدافع ببسالة عن مخيم العزة في مدخل مدينة بيت لحم الشمالي أثناء إحدى الغزوات الاحتلالية على محافظة بيت لحم ، و التي أسماها المحتلون عملية "السكين في الزبدة" .

و عندما استشهد الجوجو كانت ابنته آيات جنيناً في بطن أمها .

و كان الجوجو ، و هو أحد أفراد الأمن الفلسطيني ، قاد المقاومة في مخيم العزة و نظم مجموعة من المقاومين تمكنوا من إيقاع خسائر كبيرة في صفوف قوات الاحتلال بأسلحة بسيطة و عبوات صنعت محلياً تعرف باسم الأكواع .

في شهر 10 عام 2001 ، و عندما تمكنت حينها من الدخول إلى المخيم الذي خضع لحصار و تدمير ، رأيت مجموعة من الأطفال تتحلق في إحدى زوايا مخيم العزة في مدينة بيت لحم ، بجانب صور للمقدّم الشهيد ناهض الجوجو المعروف لدى السكان بكنيته (أبو حسين) و على الجدران بقايا من دم الشهيد الجوجو الذي سقط في معركة الدفاع عن المخيم خلال الأسبوع الماضي .

و قال لي شهود عيان من المخيم ، إن الجوجو الذي كان يقوم بواجبه في مقاومة المحتلين ، قتل بعد إصابته برصاصة قناص صهيوني ، و رغم أنه كان يعرف بأنه في مكان يمكن أن يصيبه في مقتل كما حدث إلا أنه أصر على بقائه في موقعه و أطلق النار على المحتلين قائلاً قبل لحظات من استشهاد : (إذا كان لي بقية من عمر فسأعيش) .

و عندما وقفت في نفس المكان الذي كان يقف عليه الجوجو ، أدركت خطورة المكان لوقوعه في مرمى قناصة الاحتلال الذين كانوا موجودين في فندق البراديس قبالة المخيم .

و عندما استشهد في المكان غمر أحد رفاقه كفيه بدمه و طبعه على الجدار . و عندما تحدّث المواطنون في المخيم عن قصص المقاومة فإن الجوجو كان حاضراً كأحد الأبطال الذين سقطوا دفاعاً عن مخيمهم .

و مثل الجوجو سقط دفاعاً عن المخيم وائل ضيف الله العبيات و الذي روي عنه قصص بطولة في أعمال المقاومة و تزويد المقاومين بالذخائر المصنّعة محلياً و نجاحه أكثر من مرة في اقتحام مواقع جيش الاحتلال و العودة ، و استشهد و هو يقاوم

و في تلك الفترة سقط شهيد ثالث سقط في المخيم هو محمد براقعة و هو مواطن بسيط طيّب القلب يعاني من إعاقة في السمع و سقط و هو في منزله برصاص المحتلين .

و كشف حجم الدمار الذي خلفته الدبابات الصهيونية و الجرافات مدى الحقد الذي يعتقد المواطنون أن حكومة الاحتلال تكّنه للمخيم و سكانه بسبب صمودهم أمام الآلة العسكرية الصهيونية .

و هناك منازل بالكامل كانت الجرافات الصهيونية حملتها و رمتها في مكب قريب ، و ساعد هذه الجرافات في عملها هشاشة المنازل في المخيم التي بناها اللاجئون بما تيسر من مواد و إمكانيات .

و عندما تكبر آيات سوف لا تعرف فقط بأنها تحمل اسم استشهادية دخلت قلوب الجماهير العربية بعملها البطولي الذي قامت بها (دفاعاً عن الكرامة العربية و الإسلامية) كما قالت في وصيتها ، و أن والدها بطل و مقاوم دافع عن مبادئه حتى الاستشهاد ، و لكنها ستعرف أيضاً أن خالها أيضاً كان شهيداً ، و هو البطل محمد أبو سرور .

و سقط محمد أبو سرور و كان طالباً في جامعة بيت لحم أثناء انتفاضة النفق في خريف عام 1996م . و كان محمد فتحي أبو سرور المعروف بكنية (أبو صالح) ، طالباً في السنة الثالثة بكلية إدارة الأعمال في جامعة بيت لحم .

قتل يوم 1996/9/26م و ما سمي بانتفاضة النفق التي قام بها الفلسطينيون في أوجها ، بعد أن افتتح نفقاً بالقرب من أساسات المسجد الأقصى المبارك ، و كان من الأسباب الفعلية للانتفاضة فهم مبكر لنوايا المحتلين في (مسيرة السلام) التي لا تنتهي و لا تجلب معها سلاماً من أي نوع .

بدأت الانتفاضة بمسيرات سلمية ، تطورت خصوصاً في رام الله ، و في بيت لحم بالقرب من قرية راحيل شمال بيت لحم إلى مواجهات عنيفة ، و كان أبو سرور طالباً خلوفاً و مجتهداً في دراسته ، فرغ لتوّه من تأسيس لجنة للحفاظ على البيئة في الجامعة ، و كما يليق بطالب نشط في أوساط الحركة الطلابية ، و وفاء لتاريخ طويل من النضال سطره طلبة الجامعة ، كان أبو سرور في مقدمة المنتفضين ضد فتح ذلك النفق الذي اعتبره الفلسطينيون أنه يهدد أساسات المسجد الأقصى بالانهيار .

و كما يحدث دائماً ، فإن رصاص الاحتلال عندما يطلق يحصد أفضل المنتفضين ، فسقط أبو سرور برصاص قناصة الاحتلال المراطيين عند قرية راحيل ، و وصفه رفاقه في بيانات النعي (بالإعصار في وجه عثرات الزمن) . و سميت لجنة البيئة في الجامعة باسمه ، و زرع زملاؤه و زميلاته أرضاً قرب الجامعة بالأشجار الحرجية على اسمه .

و من المؤكد ، إذا قدر لآيات الصغيرة أن تنجو من بطش المحتلين و قتلة الأطفال ، ستذكر بفخر أنها تحمل اسم واحدة من أجمل بطلات هذه الأمة في عصرها الحديث ، و بأنها ابنة شهيد و ابنة شقيقة شهيد آخر .

(11)

في الليلة السابقة على العملية كانت آيات ساهرة مع والدها طوال الليل تقريباً تذاكر دروسها ، لتعويض ما فاتتها بسبب اجتياح سابق للمحافظة تعطلت فيه المدارس ، و تتابع معه ، و مثله ، ما يستجد من أخبار العدوان و التي كانت تترى خصوصاً و أن الحشود الاحتلالية كانت تزداد على أبواب بيت لحم و مدنها و قراها و دخول المحتلين متوقع في أية لحظة .

و تابعت معه أخبار العملية التي قام بها الشهيد أحمد عبد الجواد ، الذي اقتحم مستوطنة "ألون موريه" قرب نابلس ، و قتل فيها أربعة من المستوطنين و جرح خمسة آخرين قبل أن يستشهد .

و في هذه الليلة لم يكن هناك ما يفصح في تصرّفات آيات من أنها ستقدم على أهم عمل مفصلي في حياتها . كانت تذاكر مستعدة لتقديم امتحاناتها لتحقيق طموحها و تتابع دراستها العليا و تكون صحافية ، و تتحدث بتلقائية كما يحدث دائماً و تصنع القهوة لوالدها كما كانت تحب أن تفعل .

و بعد الفجر بقليل أيقظت والدتها لتصلي تلك الفريضة .

و تنازلت على ما يمكن أن يساعد أهلها ، أو حتى يساعدها في قادم الأيام ، و هو بث إشارات توديعية لهم ، و لكنها لم تفعل ، فهذا ضد السرية التي يجب أن تغلف العمل النضالي و الوطني .

كم هي رائعة .. كم هم رائعون : الفتية و الفتيات الذين رأوا عمق القهر في عيون و قلوب آبائهم فحاولوا و حاولن أن يعطوهم أملاً جديداً فقدّموا و قدّمن حياتهم و حياتهن على مذبح الحرية .. !

و في اليوم التالي ، و كان يوم جمعة ، و مثل أي طالبة مجتهدة تحرص على حضور اليوم الدراسي التعويضي لتعويض ما فات من أيام دراسية ، تصل آيات إلى مدرستها و انتهزت فرصة ما لتقوم بدور الناصحة لزميلاتها ، فنهضت من مقعدها و طلبت من زميلاتها أن يكنّ فعاليات في مجتمعاتهن و أن يبينن أسراً قوية و فاضلة و يعددن أبناءهن لطريق طويل من النضال .. !

و دون أن يدري أحد كانت آيات في نهاية دوامها الدراسي تتجه إلى حيث سيعرف الجميع ، بعد ساعات ، إلى أين .. !

سألت أبو سمير :

* هل لديك أي عتبي عليها لأنها لم تخبرك أو تلمح لذلك أو تودّعك .. !

فأجابني مبتسماً بوقار السنين و عاطفة الأب :

- الله يرحمها ، هي الآن عند رب العباد و تحت رحمته ، إننا نعتب على أنفسنا و نطلب الرحمة لأنفسنا نحن .. !

و أضاف بثقة دون أن تفارقه الابتسامة الحزينة و المعبرة عن قوة كامنة :

- مثلت آيات بطولة الفتاة الفلسطينية ، و هي ، أي الفتاة الفلسطينية عبارة عن تضحية و صمود و إصرار .. !

و أكمل :

- أعطت آيات العالم العربي درساً .. ! ، و تمثل في نفس الوقت استمراراً لإرث موجود و حي في تراثنا ، خذ مثلاً خولة بنت الأزور - رضي الله عنها .

* ؟

- و آيات كانت محبة للتعليم و للدراسة و للمصحف بشكل كبير ، بعد أن تدرس كانت دائماً تقرأ في القرآن الكريم ، تجد في ذلك راحة نفسية كبيرة .. !

* ؟

- ليس فقط بوش هاجمها و هاجم عمليتها ، هناك الكثير من زعماء العام تحدّثوا عنها ، الكل تحدّث ، و ما يهمني هو الناس في العالم العربي ، و هم أيضاً تحدّثوا عنها ، و هذا حقهم ، فأنا لا أملك أن أحرم أيّ واحد منهم أن يتحدّث عن أخته أو ابنته ، تحولت آيات باستشهادها إلى ابنة و شقيقة كلّ هؤلاء الذين يرزحون تحت احتلالات مختلفة في عالمنا العربي .. آيات قاومت الاحتلال العسكري الصهيوني .. و ربما يجب عليهم أيضاً أن يقاوموا .. !

و كنت كلّ فترة و أخرى أنظر إلى عيني آيات ، في الصور المعلقة ، علّها تقول شيئاً ، فوالدها يشعر بأنها لم تزل في المنزل و لم تغادره .

قال أبو سمير :

- تعرف ... ؟ عندما أدخل إلى المنزل أشعر بها و أحسّ بعينونها ترافقني .. !

و كنت أودّ أن أقول له شيئاً مشابهاً ، و لكنه أشار إلى ما وجده في حقيبتها بعد استشهادها و التي وصلت إلى المنزل بطريقة لا يعرفها :

- كان هناك في حقيبتها : حبة برتقالة ، و قطعة شوكولاتة ، و مصحفها الصغير الجميل و شريط يحمل عنوان (سراج الأقصى) .

و تذكر أيضاً :

- تعرف ... ؟ آيات من مواليد 1984/3/18 ، و بين عيد ميلها و استشهادها 11 يوماً ، و في يوم ميلها أصرّ أشقاؤها و شقيقاتها أن يحتفوا بها و هكذا كان ، و كانت في جذوة ألقها .

و هو ما تحتاجه ، برأي استشهادية مثلها : أن تكون في جذوة ألقها الذي سطع أكثر بعد ذلك اليوم ، عندما وصلت مدخل السوبر ماركت في تلك المستوطنة و وجدت بعض الفلاحات العجائز من الفلسطينيات يبعن قرب السوبر ماركت أغراضاً أنتجتها ما تبقى من أرضهن ، فأنحت آيات و تناولت باقة خضراء لعلها تمنع

أو سبانخ و همست لهن بأن يذهبن بعيداً ... بعيداً ، و قصدت السوبر ماركت و في ثواني معدودة انتقلت من موتٍ إلى حياة .. !

و عندما كان الحديث متصل بيني و بين أبي سمير ، وصل خبر أن منقذ العملية الاستشهادية في مدينة ليشون ليتسيون الاستيطانية المقامة على أراضي قرية عيون قارة الفلسطينية المهدمة ، قبل أيام (في 2002/5/22) ، هو (عيسى عبد ربه بدير) .

ضربت على جبهتي و قلت لأبي سمير :

* هو على الأغلب ابن المحامي عبد ربه بدير : كيف البصر و حاضر البصيرة . !

(12)

و خرجت إلى منزل الشهيد الجديد و عمره - 16 عاماً - و على باب المنزل رأيت خال الشهيد محمود أبو عودة ، و دار حديثاً انضم إليه آخرون : كان عيسى نقذ العملية باسم كتائب الشهيدة آيات الأخرس و الشهيد أحمد إسحاق و كلاهما من مخيم الدهيشة ، و مثلما حدث مع آيات ، فإن أهل الشهيد و أقرباءه كانوا متفاجئين : من هذا الجيل الجديد في عمر النكبة الفلسطينية المؤلمة و المستمرة يقررون و يفعلون ، تاركين للآخرين الكبار ترف التحليل و الشجب و التنصل من دماء الشهداء .. !

قبل أسابيع خط الفتى عيسى عبد ربه بدير ، و هو أصغر استشهادي من الضفة الغربية ، اسمه في خانة الأسماء على أحد دفاتره و كذلك عمره و كتب تحتها الأمنية : الاستشهاد في سبيل الله . و لم يكن أشقاؤه و أقاربه يتوقعون عندما تابعوا خبر العملية الاستشهادية في "ريشون ليتسيون" ، قبل يومين ، بأن منقذ العملية هو ابنهم و بأنه حقق أمنيته .

علمت أن الشهيد الجديد طالب في الصف الأول الثانوي في مدرسة إسكندر الخوري في بيت جالا و هو أصغر إخوته و أخواته و عددهم خمسة و والده محامي معروف و كيف البصر كان في زيارة إلى العاصمة الأردنية عمان .

قال لي محمود أبو عودة خال الشهيد إن الأخير تغيب عن المنزل منذ أربعة أيام ، و لم يكن هناك أية توقعات أو دلائل تشير إلى احتمال إقدامه على عمل استشهادي . و عير عن اعتقاده ، بأن الضغط و الجرائم الاحتلالية السبب في إقدام الشهيد و أمثاله على أعمال استشهادية .

و حدثني عن الشهيد الذي كان متفوقاً في دراسته و يحظى بمحبة خاصة من أشقائه و والديه كونه الأصغر . و علمت أن الشهيد و قبل أن يخرج للمرة الأخيرة من المنزل طلب من أمه أن تقبله أكثر من مرة و كان في حالة معنوية مرتفعة ، و ربما كان طلبه هذا هو وداعه الأخير لوالدته ، حيث تستلزم الأعمال الاستشهادية كثيراً من السرية .

و ذكر خالد شقيق الشهيد الأكبر و عمره 25 عاماً ، أن شقيقه الشهيد عندما غادر المنزل كان في حالة طبيعية جداً و لم تكن تصرفاته تدلّ على أنه سيقدم على عملية استشهادية ، و أنه قضى معه ساعات امتدت حتى الصباح في حديث متصل في مواضيع مختلفة .

و قال : (لم أكن أبداً أعرف أنه سيقدم على مثل هذا العمل) .

و أكد خالد لي ، تأثر شقيقه البالغ بما يجري و أنه كان مرهف الأحاسيس ، مشيراً إلى تأثر شقيقه الصغير بجريمة اغتيال عائلة المناضل حسين أبو كويك في مدينة البيرة قبل أشهر .

و بدت والدة الشهيد متماسكة الأعصاب ، و هي تمسك صورة كبيرة للشهيد بينما يحيط بها العشرات من النسوة . و بدا العشرات من المواطنين يتوافدون على منزل عائلة الشهيد و هم يشدون من أزر العائلة ، و نشط آخرون في تعليق الأعلام الوطنية و تجهيز المكان لاستقبال المتوافدين من المواطنين .

و أنا جالس على سطح منزل عائلة الشهيد الجديد عيسى ، سرحت في الأفق و لمحت بضعة غيوم ربيعية تتقدم و لا أعرف لماذا تذكرت تلك اللوحة التي حرصت على تعليقها أمام مكتبي الذي دهمه المحتلون و تركوه خراباً : لوحة ليناردو دافنشي عن (العشاء الأخير) للسيد المسيح - عليه السلام - بين تلاميذه ، حين قال لهم : (سيخونني واحد منكم) ، و كنت طلبت من صديق فنان أن يخط العبارة على اللوحة :

- سيخونني واحد منكم .. !

و لم أكن أعرف عندما علقت اللوحة مفتوناً بفن دافنشي و بشخصية طفل المغارة الذي ثار على الرومان، أن ما قاله الأخير قبل ألفي عام عن واحدٍ من أصحابه ، ينطبق على العشرات ، و حيث أصبح التتكرار لدماء الشهداء ، له فلسفة خاصة تجد طريقها إلى عقول جيل جديد من النخب الثقافية و السياسية في فلسطين و العالم العربي ، و تترسخ باعتبار ذلك براغماتية .. و واقعية .. !

و لم أتوقع حينها ، بأن الخائنين لدماء "آيات" و "عيسى" و "وفاء" و "عندليب" و العشرات من أمثالهم ، سيوثقون خيانتهم مكتوبة ، و يوقعون أسماءهم عليها ، و ينشرونها ، في الصحف على الملأ .. !

و لم يكن ذلك ، في الواقع ، غريباً .. في واقع عربي ، أصبحت فيه "الخيانة وجهة نظر" .. !

وصية آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلاً" (صدق الله العظيم)

أنا الشهيدة الحيّة آيات محمد لطفي الأخرس ، أقوم بعملتي هذا خالصاً لوجه الله العليّ القدير ، و تلبية لنداء الشهداء و الدم و الأمهات الثكالي و الأيتام و كلّ المستضعفين في الأرض و تلبية لنداء الأقصى الشريف .

و أقول لحكام العرب كفاكم نوماً .. كفاكم تخاذلاً و تقاعساً عن أداء الواجب تجاه فلسطين و خست الجيوش العربية النائمة التي تنظر عبر شاشات التلفاز على بنات فلسطين و هن يقاتلن و هم في غفلتهم نائمون ..

و أقول صيحتي هذه و ليسمعها كلّ عربي مسلم أبي ..

وا أقصاه..... وا أقصاه وا فلسطين ... وا فلسطين ...

الله أكبر الله أكبر ... على الظالمين ...

"و إنها لا تنفأ حتى النصـــــر"

الشهيدة :

آيات محمد لطفي الأخرس

2002/3/29